الأمراض الاجتماعية فى مصر الإسلامية

فى عصر الدولة الطولونية

٢٥٤ - ٢٩٢هـ / ٨٦٨-٩٠٥م

دكتور

أحمد عبد اللطيف حنفى محمد

مدرس التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية

كلية الآداب - جامعة حلوان

الأمراض الاجتماعية فى مصر الإسلامية

فى عصر الدولة الطولونية

٢٥٤ - ٢٩٢هـ / ٨٦٨-٩٠٥م

تمهيد:

يقصد بالأمراض الاجتماعية تلك العادات المرذولة التى تشيع بين أفراد المجتمع لتناول المسكرات بأنواعها[١]، والإقبال على مجالس اللهو، والغناء وما يتبع ذلك من عادات غير أخلاقية، كممارسة الزنا واللواط والمجون الفاحش وغيرها، مما يعطل الأفراد والجماعات عن سيماء العمل الجاد والانتاج التى هى من خصائص المجتمع الصحيح الخالى

---

(١) السُكْر: هو اختلاط الأمور فى ذهن الإنسان وعجز عقله عن إدراكها بتأثير الشراب المسكر وأنواع المخدرات الأخرى، وتنقسم المادة المسكرة إلى أنواع، منها **الخمر** وهى المستخرجة من عصير العنب، ومنها **النبيذ** وهو المستخرج من التمر والزبيب، ومنها **البعة أو المزر** المستخرجة من الحبوب كالحنطة والشعير والذرة، ومنها **الفقاع** المستخرج من العسل والسكر، أما **المخدرات** كالحشيش والأفيون فهى التى يتم استخراجها من نباتات القنب والخشخاش. عن ذلك انظر: المعجم الوسيط، إصدار مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ط٢، سنة ١٩٧٢م، **مواد: سكر** (ص٤٣٨). **خمر** (ص٢٥٥). **نبيذ** (ص٨٩٧). **جعة** (ص١٢٦). **مزر** (ص٨٦٦). **فقاع** (ص٦٩٨). **خدر ومخدر** (ص٢٢٠). **قُنَّبْ** (ص٧٦١). **خشخاش** (ص٢٣٥). ولمزيد من التفصيل انظر: د. أحمد فتحى بهنسى: الخمر والمخدرات فى الإسلام، مؤسسة الخليج العربى، القاهرة، ط١، سنة ١٩٨٩م، صفحات ٩، ٦٣، ١٣١، وما بعدها.

من الأمراض، والذى يعتنق جميع قطاعاته - حكومة وشعباً- غايات الرفعة والسمو والاعتماد على النفس[1].

أما عن السبب فى اتخاذ هذا الموضوع مجالاً للبحث، فيتمثل فيما عرضه العلامة الشهير فيلسوف المؤرخين المسلمين عبد الرحمن بن خلدون (ت ٨٠٨هـ-١٤٠٦م) من فصول عديدة فى مقدمته الشهيرة عن العلاقة بين التطور الحضارى بشقه المادى للأمم Civilization وبداية انحراف شعوبها[2]، وكان اتخاذ مصر الطولونية كنموذج لذلك، أمراً طبيعياً، لبلوغ تلك الدولة درجات رائعة فى الحضارة المادية. بينما توازنت فى مصر فى عصر الولاة- وهو العصر السابق لحكم الطولونيين- عوامل التطور المادى للحضارة إلى جانب المعايير الروحية، وبالتالى لم يكن لتلك الأمراض فرصة الظهور العلنى آنذاك. وليس أدل على ذلك من أن أول إشارة لمعالجة أمر الخمور والملاهى كظاهرة عامة فى مصر الإسلامية، إنما جاءت بعد الفتح الإسلامى لمصر بنحو قرن ونصف القرن. وذلك من خلال حديث المؤرخ الكندى[3]- والذى أكده ابن تغرى بردى[4]- عن الوالى العباسى

(١) وهى أمور تحدث نتيجة الفهم الخاطئ للتقدم الحضارى والارتفاع المادى لمستوى المعيشة بين الأفراد (وهو ما سنحاول إلقاء الضوء عليه فى هذا البحث). وكذلك نتيجة الفهم الخاطئ لحق الإنسان فى الترويح واستغلال وقت الفراغ فيما هو مفيد ومباح. وهو أمر عولج بالتفصيل فى بحث لـ: عبدالله بن ناصر السدحان: الترويح وعوامل الانحراف (رؤية شرعية) منشورات كتاب الأمة عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، العدد ٧٤، ذو القعدة ١٤٣٠هـ السنة التاسعة عشرة.

(٢) ابن خلدون: المقدمة، تحقيق د. على عبد الواحد وافى، ٣ أجزاء، طبعة دار نهضة مصر، القاهرة ١٩٨١، جـ٢ **فصول فى أن** عوائق الملك حصول الترف وانغماس القبيل فى النعيم (ص٥٠١). **وفى أن** طبيعة الملك الترف (ص٥٤٠). **وفى** كيفية طروق الخلل للدولة من جهة المال (ص٧٥٨). **وفى** أن الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره وأنها مؤذنة بفساده (ص٨٨٨-٨٩٢). وفى صناعة الغناء (ص٩٧٦-٩٨٣) حيث يقول ما نصه: "وهذه الصناعة آخر ما يحصل فى العمران من الصنائع، لأنها كمالية فى غير وظيفة من الوظائف، إلا وظيفة الفراغ والفرح، وهى أيضاً أول ما ينقطع من العمران عند اختلاله وتراجعه".

(٣) الكندى: ولاة مصر، تحقيق د. حسين نصار، مطبوعات دار صادر بيروت ١٩٥٩م، ص١٥٤-١٥٥.

(٤) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٦٣م، جـ٢ ص٦١-٦٢.

على بن سليمان (شوال ١٦٩هـ ربيع أول ١٧١هـ/ مايو ٧٨٦م- أكتوبر ٧٨٧م) وتشدده فى "الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ومنع الملاهى والخمور". وهى سياسة - على ما يبدو لنا- ارتبطت إلى حد كبير برغبة هذا الوالى فى تطهير مجتمع العاصمة من الموبقات التى انتشرت كمضاعفات لحركة الثائر الأموى دحية بن مصعب بن الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان ضد الإدارة العباسية فى صعيد مصر (١٦٥هـ- جماد آخر ١٦٦هـ/ ٧٨٢م- نوفمبر ٧٨٥م)[1]. بمعنى أن انشغال الإدارة العباسية بمعالجة ثورة دحية الأموى فى صعيد مصر ربما أعطى الفرصة للمسيئين وراغبى التفلت والتحلل من قيود الجد والحزم فى ممارسة تلك العادات المرذولة.

والحق إن للحكومات فى هذا الأمر دور مهم، فهى تكون مسئولة إما بصفة مباشرة، وإما بصفة غير مباشرة. **ففى الحالة الأولى** يكون الأمراء أنفسهم ممن يتعاطون المسكرات مثلاً، أو ينظم لهم حجابهم ورجال البلاط لديهم مجالس لهو وسماع الغناء، بزعم الترفيه عن أنفسهم وتجديد النشاط كى يتسنى لهم النهوض بأعباء الحكم من سياسة واقتصاد وعمليات حربية ومواجهة قلاقل... الخ. ولا ريب أن العامة يكونون فى هذه الحالة على دين ملوكهم حسبما هو مشهور فى عرف الدولة والسياسات، بل نقرأ حينئذ عن اشتهار أماكن معينة ومناسبات خاصة بممارسة اللهو، فضلا عن رسوم تفرض كضريبة على

(١) عن تفاصيل هذه الثورة انظر: الكندى: ولاة مصر، ص١٥٢-١٥٤، ويبدو أن الوالى على بن سليمان كان شديد الوطأة على بعض ذوى النفوذ من أهل الفساد بمصر وبعض من لهم علاقة بصناع القرار فى عاصمة الخلافة ببغداد بحيث إنهم سعوا إلى عزله ودسوا للخليفة العباسى هارون الرشيد متهمين إياه بالقول بالقدر، وبأنه يطمع فى الخلافة. وكانت النتيجة أن سخط الخليفة هارون على واليه وعزله سريعاً عن إمرة مصر بحجة أنه تساهل فى أمر إدريس بن عبد الله العلوى الفار من الإدارة العباسية، وذلك أثناء مرور الأخير بمصر فى طريقه إلى المغرب. وراجع كذلك: ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٢، ص٦٢. ولاحظ أخيراً: أن المتهم الحقيقى بالتستر على الأمير إدريس العلوى هو متولى البريد آنذاك واضح مولى صالح بن منصور الحميرى الذى دفع حياته ثمناً لذلك. عن ذلك انظر: أبا عبد الله التنسى: نظم الدر والعقيان، تحقيق وتقديم د. عبد الحميد حاجيات بعنوان "تاريخ دولة الأدارسة واخوتهم السليمانيين"، مجلة التاريخ بالمركز الوطنى للدراسات التاريخية، الجزائر، النصف الثانى من سنة ١٩٨٠م، ص٢٧-٢٨، ٣٠.

الملاهى. **وفى الحالة الثانية** يستغل العامة فرص تراخى قبضة الدولة وغياب الحزم نتيجة انشغال الحكام بأمور الثورات والحروب الخارجية أو عجزهم عن مواجهة الأزمات الداخلية من أوبئة ومجاعات... الخ فيعمد المسيئون منهم للتكسب السريع بممارسة تلك العادات المرذولة، وهذه وتلك، مما سنرى لها أمثلة ظاهرة فى مصر فى عصر الدولة الطولونية.

وبالنسبة للفترة السابقة على الطولونيين- وأعنى بها عصر الولاة (٢١-٢٥٤هـ/ ٦٤٢-٨٦٨م)- فقد أشارت أوراق البردى التى هى بمثابة سجلات رسمية لذلك العصر، إلى بعض النماذج لمرتكبى تلك المخالفات من شاربى الخمروبائعيها ومحترفى الغناء وضاربى الدفوف. وباستثناء شخص مسلم واحد يدعى "على المغنى" ورد اسمه ضمن دافعى الزكاة فى وثيقة ترجع إلى القرن الثانى الهجرى (ق٨م)[١]، وضح أن العدد الأكبر من أصحاب تلك الحالات كانوا من نصارى مصر ويهودها الذين عد الأمر بالنسبة لهم من توابع سياسة التسامح التى مارستها حكومة الولاة المسلمين مع أهل الذمة بمصر. وبالتالى فقد كان استمرارهم فى الاحتفال بمناسباتهم الخاصة (مثل عيد الغطاس ويوم النوروز وذكرى قديسيهم) بمثابة فرص عظيمة لشيوع تلك الممارسات فيما بينهم[٢].

وعلى العكس من ذلك، عومل المخالفون من المسلمين العرب بتشدد واضح، سواء

---

(١) د. سعيد مغاورى: الألقاب والحرف والوظائف فى ضوء البرديات العربية، رسالة دكتوراه لم تنشر، من كلية الاثار جامعة القاهرة، سنة ١٩٩٤، ص٨٥٢. وقد قام على نشر هذه البردية الموجودة بدار الكتب المصرية المستشرق جروهمان ضمن مجموعته، جـ٤، ص١١-١٣ برقم ٢١٧.

(٢) هناك على سبيل المثال ٩ حالات ما بين اتجار فى الكروم أو بيع النبيذ أو تعاطيه أو بيع الفقاع، وكذلك ٣ حالات لضاربى الدفوف ومغن واحد. وسيلى الحديث عن ظروف كل حالة وتأخر الكشوف الضرائبية الخاصة ببعضهم إلى منتصف القرن الثالث الهجرى، أى إبان الحكم الطولونى. ولمزيد من التفصيل راجع د. سيدة إسماعيل كاشف: مصر فى فجر الإسلام، سلسلة تاريخ المصريين رقم ٨٢، مطبوعات الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٤، صفحات ١٨٢-١٩٨، ود. قاسم عبده قاسم: أهل الذمة فى مصر فى العصور الوسطى، مطبوعات دار المعارف بمصر، ط٢، سنة ١٩٧٩، ص٣١-٤٥.

من جانب الولاة (وأقرب مثال لذلك الوالى العباسى على بن سليمان وقراره سابق الذكر)، أو من جانب فقهاء علماء السنة الذين مافتئوا يحذرون من عواقب الصخب الاجتماعى الذى تميزت به مدينة الفسطاط آنذاك، وأخيراً من جانب العامة الذين استجابوا لقاعدة الأمر بالمعروف والنهى فشاركوا فى التنديد بمن ثبت عليه التورط فى شئ من ذلك. ولهذا انحصرت تلك الموبقات (وأظهرها فى عصر الولاة شرب النبيذ وسماع الغناء) فى الأوساط الخاصة ببعض كبار الموظفين، العباسيين منهم بخاصة، وذلك بسبب تأثرهم أثناء وجودهم فى مصر ببيئتهم العراقية ومذهب الإمام أبى حنيفة النعمان الذى أثر عنه إباحته شرب القليل من نقيع التمر والزبيب والحنطة طالما لم يصل بصاحبه إلى حد السكر، باعتباره لم يتعرض للغليان أو التخمير. وهو أمر سنعرض له وأثره فى الحياة العامة بشئ من التفصيل فى الصفحات التالية.

فى العصر الطولونى

أولاً : الأسرة الطولونية:

معلوم لدينا أن مؤسسى الدول والأسرات الحاكمة لابد أن يتمتعوا بقدرات خاصة من حيث قوة الشخصية والنضج والذكاء وسعة الأفق والطموح والقدرة على اتخاذ القرار الحاسم فى الوقت المناسب، والا فلم يتسنى لهم تحقيق ذلك. كما أن فترات حكمهم يغلب عليها الجد والتركيز الشديد. وينعكس هذا بطبيعة الحال على حاشيتهم ورجال البلاد لديهم الذين يكونون على الدوام مستشارين أمناء قد أحسن اختيارهم. وإذا كان هذا الأمر قد تكرر- بحيث أصبح من ثوابت التاريخ- فمن المؤكد كذلك أن الوضع كان يختلف بالنسبة لخلفائهم الذين ينشأون عادة فى أجواء أفضل من أسلافهم، من حيث الهدوء والدعة لغلبة الأمن وقلة المشاكل وقوة الاقتصاد.. الخ، لاسيما إذا كان الخلف ابناً لسلفه أو أحد أقربائه. ولهذا لانعجب أن فرص الصخب الاجتماعى والرفاهة- وبالتالى الأمراض الاجتماعية- تكون أكبر فى الجيل التالى، كحصاد طبيعى لجهود جيل المؤسسين. وتبعاً لدرجة تفشى تلك الأمراض أو تعرضها للمقاومة يكون اتجاه المؤشر نحو الانحدار والسقوط بالنسبة لتلك الدول إما سريعاً وإما بطيئاً.

ويسهل علينا- فى هذا الإطار- عقد مقارنة بين الأمير أحمد بن طولون كمؤسس للدولة الطولونية (٢٥٤-٢٧٠هـ/٨٦٨-٨٨٤م) وبين خلفائه من أفراد أسرته: خمارويه بن أحمد بن طولون (٢٧٠-٢٨٢هـ/٨٨٤-٨٩٦م) وابنه أبى العساكر جيش بن خمارويه (٢٨٢-٢٨٣هـ/٨٩٦-٨٩٦م) وأخيه هارون بن خمارويه (٢٨٣-٢٩٢هـ/٨٩٦-٩٠٤م) وأخيراً شيبان بن أحمد بن طولون (صفر- ربيع أول ٢٩٢هـ/ ديسمبر ٩٠٤م- يناير ٩٠٥م) من منظور البحث طبعاً.

بالنسبة للأمير أحمد بن طولون:

فقد كشف منذ الأيام الأولى لحضوره عن طبيعة شخصيته الطموحة من حيث الجد والصرامة والتركيز على النافع المجدى من الأمور، وذلك حينما رفض الهدية المالية التى قدمها له عامل الخراج حينئذ على مصر أحمد بن محمد بن المدبر، رغم ضخامة المبلغ (حوالى عشرة آلاف دينار ذهباً) واحتياجه الشديد[١]. ثم أصر فيما بعد أن تكون الهدية مجموعة الجنود المئة الذين يشكلون الحرس الخاص بابن المدبر، مما جعل الأخير يرسل تقريرين متتابعين للإدارة العباسية بالعراق يحذر فيهما من خطر ابن طولون وطموحه الزائد فى الاستقلال بمصر[٢]. كما أن أسلوبه فى الحكم القائم على بث ثقاته على جميع موظفيه، وبث ثقاة آخرين على الأولين، قد جعل الجميع يخشى بأسه بالنصح السديد على

(١) يروى عن ابن طولون أنه كان أول دخوله مصر فى عسر شديد دعاه لقبول هدية مالية من أحد أعيان مصر ويدعى على بن معبد البغدادى، وكانت حوالى ١٠ آلاف دينار "فقبلها ورأى لها موقعاً حسناً". عن ذلك انظر: ابن إياس: بدائع الزهور فى وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، مطبوعات الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، سنة ١٩٨٤، جـ١ ق١، ص ١٦١، وراجع: د. سيده إسماعيل كاشف: أحمد بن طولون، سلسلة أعلام العرب رقم ٤٨، القاهرة ١٩٦٥، ص٥٩-٦٠.

(٢) ابن الداية: المكافأة، تحقيق أحمد أمين وعلى الجارم، مطبوعات وزارة المعارف العمومية بمصر، ط١ سنة ١٩٤١، ص١٣١-١٣٢؛ البلوى: سيرة أحمد بن طولون، حققها وعلق عليها محمد كرد على، دمشق ١٩٣٩، ص٤٣-٤٥، المقريزى: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بخطط المقريزى، جزآن طبعة بولاق، ١٢٧٠هـ، جـ١، ص٣١٤÷ وراجع: د. سيدة إسماعيل كاشف: أحمد بن طولون، ص٤٩-٥٠.

الدوام[1]. وكذا اتسمت انفاقات ابن طولون- رغم كثرتها وتنوعها- بالاعتدال وعدم السفه والتبذير أو إساءة الاستخدام، بحيث صار كل درهم يوضع فىّ محلة سواء فى مصروفات الدولة بكافة أنواعها أم فى أعمال البر والخير[2]. وفى أموره الشخصية، أطلعتنا جاريته "نعت" على حزمه فى أمور النساء والجوارى- رغم كثرة ذريته (١٧ ولداً و١٦ بنتاً)- بحيث لم يشتهر فى بلاط ابن طولون أية واحدة منهن، وبالتالى لم تعط إحداهن فرصة التدخل فى شئون الحكم أو الشفاعة فى أمر من أمور الدولة. بل كان- حسب تعبيرها- يتودد بما ملكت يمينه منهن قبل أن يتحظاهن إلى قادته يستميلهم بهن، رغم جمالهن. وقال ابن طولون لامرأته "نعت"، وقد حاولت ذات مرة التسرية عنه ببعضهن: "قد ارتفعت رغبتى فى النكاح وما ناسبه، وإنما رغبتى الآن وأربى فى حراسة دولتى وضبط نعمتى... إعلمى أنى أجد فى فهم الرجل عنى وإفهامه إياى من الإلتذاذ أكثر مما يجده مجامع الحسان من لذة جماعها، وحسبك (أى لاتعودى لمثله أبداً)". وقال فى موضع آخر مادل على حرصه على استمالة قادته وكسب إخلاصهم وطاعتهم بالمال وغيره: "أما أنا فأرى أن أدفع بمالى عن رجالى، وبرجالى عن نفسى. وما فى الأرض عندى ابغض إلىّ من رجل يزيد ماله على فعاله (يعنى يقتنى بغير استحقاق) وحاله على كفايته"[3].

ورغم ذلك فقد فاجأنا ابن طولون باتخاذ **مجالس لهو**، شرب فيها النبيذ وسمع الغناء،

---

(١) البلوى: سيرة أحمد بن طولون، ص٧٣، ١١٨-١٢٢. عن حادثة الجاسوس المدعو بالفارسى الذى جعله ابن طولون عيناً له على أحد جنوده الأتراك.

(٢) قيل إن أحمد بن طولون أنفق على بناء جامع القطائع ١٢٠ ألف دينار، والبيمارستان ٩٠ ألفاً، وعين الماء التى بالمعافر ١٤٠ ألفاً، وعلى حصن الجزيرة بالروضة ١٢٠ ألفاً، وبناء قصر الميدان بالقطائع ١٥٠ ألفاً، وعلى مرمات الثغور وحصن يافا ٢٠٠ ألفاً، وعلى إصلاح مقياس الروضة الف دينار. بجانب الصدقات الكثيرة وقدرها ألفا دينار كل شهر، ورسم مطابخه، وفائض الميزانية المرسل كل عام لقر الخلافة العباسية، عن ذلك انظر: المقريزى: خطط، جـ١، ص٣١٦، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٣ ص٨، ١٢. وراجع : د.محمد أمين صالح: دراسات اقتصادية فى تاريخ مصر الإسلامية (عصر الولاة) ط١ سنة ١٩٧٥، ص٣١.

(٣) البلوى: المصدر السابق، ص١١٠-١١١، وراجع د. سيدة كاشف: أحمد بن طولون، ص١٥٢.

كنوعٍ من الترفيه واستجماع النشاط والذهن، واكتمال للحالة التى كان عليها معاصروه ونظراؤه الحكام فى دولهم، وبخاصة أنه كان يقصد منافسة الخلافة العباسية باتخاذ بلاط عظيم يحكى آيات الفخامة والترف الموجودة هناك إن لم تكن أعظم. واتخذ فى هذا الشأن مغنياً بدعى "كنيز"[1]. ويبدو لنا أن أحمد بن طولون كان حريصاً على ضبط النفس إلى حد بعيد، حتى لايفقد مهابته بين ندمائه. فلم تشر الروايات إلى أنه شرب مسكراً آخر غير النبيذ. متأثراً بطبيعة الحال ببيئته العراقية حيث المذهب الحنفى الذى أجاز شربه بضوابط معينة[2]. كما أنه لم يحدث أن سكر ولو مرة واحدة أمام ندمائه، فى حين كان يجدها فرصة فى سكر من حوله لمعرفة حقائق كثيرة يعترفون بها أثناء غيابهم عن الوعى. ومن الطريف أنه لم يكن يحاسب المخالفين أثناء انعقاد مجالس اللهو، بل فيما بعد. مثلما حدث مع أحمد ابن أيمن- كاتب ابن طولون- الذى حمله سكره ذات مرة على الرقص حتى سقط على الأرض وتبين أنه كان يحمل فى طيات ملابسه أكياس من المال المختلس دون علم أحمد بن طولون. وشهد عليه بذلك أحد الندماء بذات المجلس، ويدعى أبو ذؤيب نعيم النصرانى كان عيناً لابن طولون على موظفيه، وقد رفض ابن طولون الاستماع لحديث أبى ذؤيب قائلاً: "ارفع هذا إلى الصحو، ولا تخلط الجد بالسخف". ثم إنه أوقع فيما بعد بكاتبه

(١) البلوى: نفسه، ص٢١٧، ابن سعيد الأندلسى: المغرب فى حلى المغرب، جـ١ من القسم الخاص بمصر، نشر وتحقيق د. زكى محمد حسن، ود. شوقى ضيف ود. سيدة إسماعيل كاشف، مطبعة جامعة فؤاد الأول (القاهرة) سنة ١٩٥٣، ص١١٢.

(٢) الأصل فى النبيذ هو ما القى فى الماء من تمر أو زبيب أو حنطة أو شعير ونحوه، بحيث إن شربه لايبلغ بصاحبه إلى السكر. فإذا بلغ حد الإسكار، ويعرف ذلك اشتداده وغليانه وقذفه بالزبد، صار خمراً. راجع: أحمد فتحى بهنسى: الخمر والمخدرات فى الإسلام، ص٦٢. ولاحظ كتب الفقه الإسلامى التى اعتمد عليها فى هامش هذه الصفحة، وراجع كذلك: السرخسى: كتاب المبسوط فى الفقه الحنفى، مطبوعات دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، جـ٢٤، ص١٣. حيث يقول ما نصه: "والزبيب المعتق إذا لم يطبخ فلا بأس بشربه، مالم يُغل. فإذا غلا واشتد فلا خير فيه". ويقول فى موضع آخر: "وإنما بقى الكلام فيه (يعنى الخمر) فى فصل واحد، وهو إن عند أبى حنيفة العصير وإن اشتد فلا بأس بشربه مالم يُغل ويقذف بالزبد، فإذا غلا وقذف بالزبد فهو خمر حينئذ".

أحمد بن أيمن وسجنه[1]. بينما استفزه الحسن بن مخلد أحد الوزراء العباسيين السابقين، رغم سابق إكرام أحمد بن طولون له، حتى إنه استدعاه من الشام مكرماً، وبالغ فى الاحتفاء به كى ينسيه مالقيه من عزل ونفى، وسمح له بمنادمته. فما كان من الحسن بن مخلد إلاّ أن تصرف بغير اكتراث مع ابن طولون ولم يشعره بأثر جميله معه، ولهذا حينما سكر ذات مرة وزاد عليه النبيذ "غنى بالنبطية وجعل يصفق وأخرق بنفسه". فأمر ابن طولون بجر رجله وحبسه "فلم يزل محبوساً"[2]. وعلى العكس من ذلك بدا أحمد بن طولون مجاملاً رقيقاً مع إحدى السيدات- وهى إعرابية تدعى أم عقبة- جاءته متظلمة من جور بعض موظفى الدولة. فأمر برد ظلامتها، وبإكرامها، ثم أذن لها بالدخول عليه فى مجلسه "وهو مع خواص له يشرب". وقد يكون السبب فى تعجيل ابن طولون بإدخالها عليه، معرفة سرعة استجابة موظفيه لأوامره بإزالة أسباب الشكوى، أو رغبته فى الاستماع لفصاحة أهل البادية المعروفين بذلك. وبالفعل، فقد "حدثته بما استحسنه، وأنشدته ما استطابه". ثم إنه حاول إزالة حيرتها "من صفاء كأس بيده ورقة شراب فيه، فأمر لها بكأس... فلما عزم عليها شربته". ولما وضح تأثرها السريع بمفعول النبيذ أمر بصرفها عن المجلس وإدخالها إلى حرمه، وطلب منها ألا تخبر نساءه بذلك[3]. وهو أمر اعتبره د. حسن أحمد محمود دليلاً "على أنه (أى ابن طولون) كان يشرب خفية"[4]. وإن كان من المحتمل أن ذلك تعبير عن إحساس أحمد بن طولون بالخجل أو الضيق لتطور الأمر على هذا النحو، لأن المرأة فور تناولها جرعة النبيذ استرسلت فى الضحك، وازداد تعجبها من سلوك أهل المدن المخالف

(١) البلوى: ص ٢١٧- ٢١٨، ابن سعيد: المصدر السابق، والجزء والصفحة.

(٢) البلوى: ص ١٧٣-١٧٥؛ ابن سعيد: ص١٢٣، وعن الحسن بن مخلد بن الجراح متولى ضياع الخليفة العباسى المتوكل، ووزيره الخليفة المعتمد، والمتوفى سنة ٢٦٩هـ (٨٨٣) انظر: الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، مطبوعات دار المعارف بمصر ١٩٧٩م، جـ٩، ص٢٠٩و ٥٤٠، وابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٣ ص٤٥.

(٣) ابن سعيد: المغرب، ص١٠٣.

(٤) د. حسن أحمد محمود: حضارة مصر فى العصر الطولونى، مطبوعات دار الفكر العربى، القاهرة ١٩٧٧، ص١٨٣.

تماماً لعرف البادية الذى لايسمح للرجل أن يقدم لإمرأته مثل هذا الشراب. ويبدو أنها ندمت، لإحساسها بمشاعر تحركت بداخلها رغم حرصها على كتمها منذ ثلاثين عاماً، فأقسمت "لا وا لله لا عاودته أبداً" (١).

ولاشك أن مشاركة الأمير أحمد بن طولون فى مجال اللهو- رغم ضآلتها بحيث إننا نتفق مع الرأى القائل باستثنائه من أمراء البيت الطولونى الماجنين(٢)- قد فتحت الباب على مصراعيه أمام تلك الأمراض الاجتماعية كى تتغلغل من بعده داخل الأسرة الطولونية وبقية طبقات المجتمع المصرى.

فبالسنبة لخفاء ابن طولون، بدأت معاول الترف تؤتى أكلها سريعاً فى عهد خلفاء أحمد بن طولون من أبنائه الذين ذاقوا نعيم البلاط وتربية الجوارى، فكانوا بذلك نقطة الضعف الأبوى عند ابن طولون. ومما زاد الأمر سوءاً تلك الرفاهية والارتفاع فى درجات الحضارة بمفهومها المادى الذى خلفه أحمد بن طولون. ويكفى للتدليل على ذلك أن نذكر مقدار تركته عند وفاته، وكانت على النحو التالى: ١٠ مليون دينار، ٧ آلاف من الموالى، ٢٤ ألف من الغلمان، ٧ آلاف من الخيل، ألفان وسبعمائة من الجمال، وستمائة من البغال. كما أن خراج البلاد ارتفع فى نهاية حكمه حتى بلغ ٤ مليون وثلاثمائة ألف دينار، وكان سعر القمح فى عهده العشرة أرادب بدينار(٣).

وها هو العباس الابن الأكبر لأحمد بن طولون، وولى عهده ونائبه فى حكم مصر أثناء غياب الأخير فى منطقة الشام والثغور (سنة ٢٦٤هـ/٨٧٨م) وصف بأنه: "من أراذل

(١) ابن سعيد: المصدر السابق والصفحة.

(٢) د. سيدة إسماعيل كاشف: أحمد بن طولون، ص١٤٩. وسنرى فيما بعد نماذج لحرص الأمير أحمد بن طولون على تفقد الأمن بنفسه فى الطرقات والشوارع وكراهيته لمشاهد اللهو العربدة والسكر بين العامة.

(٣) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٣، ص٢١، وراجع د. سيدة كاشف: أحمد بن طولون، ص١٩٩. وعن ثراء مدينة الفسطاط- وليس القطائع- فى العهد الطولونى، انظر: المقريزى: خطط، جـ١ ص٣٣٠-٣٣١.

أبناء الملوك، جمع من الخلال التى تبعده من الرئاسة فى الدنيا والفوز فى الآخرة مالم يجمعه ابن ملك"[١]. وذلك رغم تأكيد البلوى على أن ابن طولون كان حريصاً على تهذيب أخلاق ابنه العباس بشكل لم يتكرر كثيراً مع بقية إخوته[٢]. وماذاك إلا لاتخاذه بطانة سوء، منهم: على بن أعور، وعبد الله بن طغيا، وأحمد بن صالح الرشيدى، وأحمد بن أسلم، وجميعهم "كانوا على خوف شديد من أحمد بن طولون" بسبب عدم رضائه عن مسلكهم وطبائع شخصياتهم بلاشك. فضلاً عن خلان العباس وندمائه من رفاق دراسته وشعرائه مثل: جعفر بن حدار، وأبى معشر أحمد بن المؤمل، ومحمد بن سهل المنتوف[٣].ونستعرض نموذجاً لما كان عليه حال أولئك الصحب والمستشارين مع أميرهم الذى خرج بهم للتنزه ذات مرة عبر النيل، وكان العباس بن أحمد بن طولون قد تنكر. فصاحوا بملاح ليكتروا مركبه مقابل أجر معلوم. فلما سكر العباس "عربد". وعندها زجره الملاح قائلاً: "هذا لايليق إلاّ بالزُطّ (يريد أوباش الهند من العبيد الذين تجمعوا حول البصرة يمارسون أعمالاً متواضعة كتطهير الحمامات من مخلفات الوقود والقمامة، وشاركوا فى ثورتهم المعروفة سنة ٢١٩هـ/٨٣٤م). وما اعتدت مثل هذه فىمركبى". فأمر العباس حراسه المرافقين له بإغراق المراكبى ومركبه فى النيل، ففعلوا[٤]. وقد رويت عن العباس قبيحة أخرى من أفعاله مع جارية له رزقت منه بولد، ففوجئ بدلا لها وصدها بحجة انشغالها بالمولود، وكان قد "سكر ليلة ومال ليُقَبّلها فانحرفت عنه". فما كان من العباس إلا أن أخذ الرضيع "وهو صغير لم تغطمه، فضرب به إلى الحائط، فانتثر دماغه، فاضطربت الجارية وأحمّت من ساعتها،

(١) ابن سعيد: المغرب، ص١٢٠.

(٢) البلوى: سيرة أحمد بن طولون، ص٢١٢-٢١٤.

(٣) الكندى: ولاة مصر، ص٢٤٦-٢٤٧.

(٤) ابن سعيد: ص١٤٢. وعن ثورة الزط فى عهد الخليفة المأمون ثم المعتصم والقضاء عليها سنة ٢١٩هـ، انظر: الطبرى: تاريخ الرسل والملوك،جـ٩، ص٨-١٠، راجع: د. عبادة عبد الرحمن كحيلة: الزط والأصول الأولى لتاريخ الغجر، المطبعة الإسلامية الحديثة، القاهرة ١٩٩٤، ص٦١-٦٧.

وقضت نحبها فى يوم تلك الليلة" [1].

ويدفعنا لتصديق تلك الروايات عن مجون العباس بن أحمد بن طولون- رغم استحالة صدورها عن إنسان سوى ومسئول عن بلد بأكمله- ما علمنا عنه من عصيان لوالده بتحريض تلك البطانة السيئة، إذ إنهم "حسّنوا للعباس التغلب على مصر"[2]. وسواء كان الدافع بالنسبة لهم كونهم عملاء للموفق طلحة- تصعيداً لحرب الجواسيس بينه وبين أحمد بن طولون حسبما رجحت د. سيدة كاشف[3]- أم مجرد طيش ولهو وعدم تقدير المسئولية؛ فإن العباس استجاب لهم وبدأ خطواته العملية بالقبض على أحمد بن محمد الواسطى الوزير الأمين للدولة الطولونية، والذى كان ابن طولون تركه ليباشر نصائحه المخلصة للعباس وألزم الأخير بالاستماع له. وأردف بالاستيلاء على ما فى بيت المال من أموال سائلة قدرت بمليونى دينار واقترض من كبار التجار مائتى ألف دينار على أن تسدد لهم من الضرائب الجديدة، وخرج بجيشه إلى الإسكندرية معلناً تنفيذ أوامر وصلته من أبيه بشأنها[4]. ولكن الحقيقة أن العباس كبل الواسطى بالحديد عقاباً له على إبلاغ أبيه بتفاصيل المؤامرة، وسار إلى الإسكندرية، ثم فر بجيشه وأتباعه إلى برقة، فى واحدة من أغرب العمليات العسكرية التى أثارت الكثير من الجدل حول دوافعها وملابساتها وما خلفته من نتائج، وبخاصة فيما يتعلق بالعلاقات بين الطولونيين ومعاصريهم الأغالبة حكام المغرب الأدنى أو ولاية إفريقية. وعلى أية حال، انتهى المطاف بالعباس بن أحمد بن طولون إلى هزيمته هزيمة فادحة عند طرابلس أمام قوات الأغالبة وبربر نفوسة الخوارج، واستبيحت أمواله وذخائره وما كان حمله معه من مصر من السلاح والخيل، واستطاع العباس أن يفلت بما بقى معه من جنود إلى برقة حيث هزم من جديد أمام الجيش الذى سيره إليه أبوه، وجئ

(١) ابن سعيد: ص ١٤٠.

(٢) الكندى: ولاة مصر، ص٢٤٧.

(٣) د. سيدة كاشف: أحمد بن طولون، ص٩٤-٩٥.

(٤) البلوى: سيرة أحمد بن طولون، ص٢٤٤-٢٥٦و ٢٦٠-٢٧١، الكندى: ولاة مصر، ص٢٤٦-٢٥٠، ابن سعيد: المغرب، ص١١٨-١٢٣؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٣ ص٤٠.وراجع: د. سيدة كاشف، أحمد بن طولون، ص٩٤-٩٥.

به وبطانته إلى الفسطاط فى سنة ٢٦٨هـ (٨٨٢م). فأمر أحمد بن طولون بضرب ابنه ومن أغروه على الخروج والعصيان بالسياط حتى مات بعضهم، وزج بابنه فى السجن[١].

أما عن خمارويه بن أحمد بن طولون، فقد جعله أبوه ولياً لعهده بدلاً من العباس، واستنابه على مصر أثناء حملته الثانية على الشام (٢٦٩هـ/٨٨٣م) بعد أن ترك معه هذه المرة بعض ثقاته من كبار قادة الجيش الطولونى حتى لايتكرر ما فعله أخوه. وإن كان تعيينه ولياً للعهد، ثم حاكماً لمصر قبيل وفاة أبيه، قد حظى بتأييد قادة الجيش الطولونى الذين رحبوا بخمارويه كراهية فى أخيه العباس وخوفاً منه لوقوفهم ضده أثناء تمرده على أبيه، وهو أمر أثلج بلاشك صدر ابن طولون عند وفاته[٢].

أعطى خمارويه صورة تختلف كل الاختلاف عن أبيه. فلم يكن رجل حرب، بل كان شاباً مترفاً يميل إلى حياة السلم والرخاء. ولهذا كادت الشام تضيع من ملكه فى أوائل عهده لولا صمود قادة جيشه أمام الجيش العباسى الذى سيره الموفق طلحة لإعادة مصر للتبعية العباسية المباشرة عقب وفاة أحمد بن طولون، وذلك فى موضع الطواحين عند نهر أبى فُطرُس بفلسطين (صفر ٢٧١هـ/ أغسطس ٨٨٤م). وتخلل ذلك انسحاب خمارويه من أرض المعركة بعد أول جولة عسكرية، ثم عاد ثانية لمتابعة القتال بعد تيقنه من نجاح قائده سعد الأعسر فى تحويل الهزيمة إلى نصر. وكان فرحه عظيماً بعقد الصلح مع الإدارة العباسية سنة ٢٧٣هـ (٨٨٧م)، إذ حصل خمارويه على اعتراف الموفق طلحة والخليفة المعتمد به وأفراد أسرته حكاماً لمصر لمدة ثلاثين عاماً تبدأ من تاريخ عقد الصلح[٣]. ثم

---

(١) عن تفاصيل حركة العباس بن أحمد بن طولون انظر مصادر الهامش السابق. وراجع كذلك: ابن عذارى المراكشى: البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب، ٤ أجزاء، نشر ليفى بروفنسال وجورج كولان ود. إحسان عباس، دار الثقافة بيروت، ط٢، سنة ١٩٨٠، جـ١، ص١١٨-١١٩؛ ود. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربى، ٤ أجزاء، منشأة المعارف بالإسكندرية، سنة ١٩٧٩،جـ٢، ص١٢٠-١٢٥.

(٢) د. سيدة كاشف: أحمد بن طولون، ص١٥٢-١٥٣.

(٣) الكندى: ولاة مصر، ص ٢٥٨-٢٦١.

ساعدته الظروف بموت الموفق سنة ٢٧٨هـ (٨٩١م)، وبموت أخيه الخليفة المعتمد بعده بسنة (٢٧٩هـ/٨٩٢م)، فخلاله الجو وتوطد سلطانه فى مصر والشام[١].

اعتمد خمارويه كذلك فى طريقة حكمه على الرصيد الضخم الذى تركه أبوه، سواء فى المال أم فى الاستقرار الإدارى والاقتصادى. فكان المال سلاحه لتحقيق غاياته. من ذلك تحسين علاقته بالعباسيين، فقد أثر عنه شراؤه السلم معهم بالأموال[٢]. ومن باب إقرار ذلك السلم، عرض خمارويه زواج ابنته أسماء التى تلقب بقطر الندى من الأمير المكتفى بن الخليفة العباسى المعتضد بن الموفق. ولكن الخليفة اختارها لنفسه، فوافق والدها على ذلك وجهزها بجهاز عظيم يتجاوز الوصف. وقد أفرد المؤرخون الصفحات الطوال فى وصف هذا الجهاز والإشادة بذكره، حتى إن بعضهم اعتقد بأن الخليفة أراد بزواج قطر الندى أن يفقر أباها فى جهازها، "وكذا وقع"[٣]. وكيفما كان الأمر، فإن هذا الوصف يدل على إزدهار الصناعة فى مصر وامتلاء أسواقها بمثل هذه المنتجات. وقد تم هذا الزواج فى سنة ٢٨١هـ (٨٩٤م) وبنى خمارويه القصور والاستراحات على جانبى الطريق إلى بغداد كى تتمتع ابنته فى أثناء سيرها بكل وسائل الراحة، فتشعر وكأنها لم تفارق قصر أبيها[٤].

استخدم خمارويه المال أيضاً فى الإنفاق بسخاء على تجميل مدينة القطائع وجعلها أشبه بمتحف مفتوح أو متنزه كبير،وكان إنفاقه فى هذا المجال قد بلغ الغاية فعلاً. مثال ذلك ميدان القطائع الذى كان فى أيام أحمد بن طولون مكاناً لاستعراض الجيش، حوله خمارويه إلى بستان جميل تأنق فى تنسيقه، فغرس فيه الرياحين والزهور على شكل نقوش وكتابات،كما كسا جذوع النخل نحاساً مذهباً وجعل بين النحاس وجذوع النخل أنابيب من الرصاص تجرى فيها المياه وتخرج على شكل عيون ونافورات وتنحدر فى قنوات إلى

(١) المصدر نفسه، ص٢٦٣.

(٢) نفسه، ص٢٦١ مع الموفق طلحة والخليفة المعتمد، وص٢٦٣ مع الخليفة المعتضد بالله.

(٣) المقريزى: خطط جـ١، ص٣١٩؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٣ ص٥٢-٥٣ وص٦١-٦٣.

(٤) المصدران السابقان والصفحات.

بقية أنحاء البستان. وجعل جزءاً من البستان حديقة للحيوانات والطيور المختلفة،وخصص لهاضياعاً كاملة لزراعة غذائها. ويقال إنه كان لديه سبع أليف يدعى "زريق" لزرقة عينيه، وكان يلازم خمارويه ويحرسه أثناء نومه. وبنى خمارويه أيضاً فى هذا البستان قصراً سماه "دار الذهب" طلى جدرانه بالذهب وجعل فيها صوراً بارزة من الخشب على مقدار قامة ونصف تمثل صورته وصور زوجاته والمغنيات اللاتى كن يغنين له. وجعل على رؤوس هذه الصور الخشبية أكاليل من الذهب المرصع بالأحجار الكريمة والجواهر، وجعل فى آذانها الأقراط الثقال الوزن المحكمة الصنع، وقد لونت أجسامها بما يشبه الثياب. وأخيراً بنى خمارويه فى البتسان فسقية مربعة الشكل، طول كل ضلع من أضلاعها خمسون ذراعاً، وملأها بالزئبق ثم وضع فوقها حشية (مرتبة) من الجلد تنفخ بالهواء ثم تشد بسيور من الحرير إلى أعمدة من الفضة فى أركانها الأربعة. فكان الفراش يتحرك عليها بحركة الزئبق الذاتية، فيجلب له نوماً هادئاً، وذلك لأن خمارويه كان يعانى من أرق أصابه (ربما بتأثير هدهدة الجوارى له كى ينام وهو صغير فى حجورهن) فأشار عليه طبيبه بعمل تلك الفسقية[1].

وانعكس هذا على مصروفات الدولة فى عهد خمارويه، فبلغت نفقات الجيش تسعمائة ألف دينار سنوياً، ولهذا استمر قابضاً على زمام التعامل مع قادة جيشه، رغم تعدد عناصرهم وعدم اعتقادهم بحق شرعى مقدس لبنى طولون فى الحكم باعتبار الأمير أحمد بن طولون كان مواطناً مثلهم بدأ حياته كواحد منهم[2]. وزادت مصروفات مطبخه المعروف بمطبخ العامة على ثلاثة وعشرين ألف دينار كل شهر، وعرف عن الخدم حملهم الفائض اليومى من ذلك المطبخ وبيعه للعامة عند باب دار الحرم- من أبواب القطائع- "بحيث إن الرجل إذا طرقه ضيف، خرج من فوره إلى باب دار الحرم، فيجد ما يشتريه ليتجمل به

(١) عن ذلك بالتفصيل انظر: المقريزى: خطط، جـ١، ص٣١٦-٣١٨؛ ابن تغرى بردى: النجوم، جـ٣، ص٥٣-٥٨.

(٢) د. سيدة كاشف: أحمد بن طولون، ص١٢٩-١٣٠-؛ د. سعيد عبد الفتاح عاشور: مصر فى العصور الوسطى، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٩٢، ص٩٩-١٠٠. ولعل هذا هو السبب فى استحداث خمارويه طائفة "المختارة" لحراسته الشخصية من أهل الحوف وأبناء العربان (المقريزى: خطط، جـ١، ص٣١٨).

لضيفه مما لايقدر على عمل مثله ولا يتهيأ له من اللحوم والفراخ والدجاج والحلوى مثل ذلك"[1]. بخلاف ما هو لجواريه وأرزاق من يخدمهن. وقد حكى ابن الداية كثيراً عن ثراء "أم آسيا" قابلة زوجات خمارويه وحظوتها عنده وشفاعتها فى حوائج خطيرة لجماعة من وجوه الدولة، وكذا عن الساعات الطوال التى كان خمارويه يقضيها قلقاً على زوجاته وهن فى حالات الوضع. ولهذا لا نتعجب من مقولة المقريزى إن بناء قصر الذهب إنما هو لأجل خاطر إحداهن وهى "بوران" التى كان خمارويه "يرى أن الدنيا لاتطيب إلاّ بسلامتها وبنظره إليها وتمتعه بها". وكان موتها بداية نهايته "ولما تكامل عز خمارويه وانتهى أمره، بدأ يسترجع منه الدهر ما أعطاه، فأول ما طرقه موت حظيته بوران"[2].

أما مجالس لهو خمارويه فحدث عنها ولا حرج، إذ كانت شبه معقودة على الدوام سواء فى القصر أم فى مواضع خروجه للتنزه والصيد، وهذه ما أكثرها. حتى قيل عنه "ولايزال يتفرج ويتنزه ويخرج إلى مواضع لم يكن أبوه يهش إليها كالأهرام ومدينة العقاب، ونحو ذلك، لأجل الصيد"[3]. وذكر الكندى خروجه "إلى نزهة بمريوط.. ثم مضى إلى الصعيد حتى بلغ سيوط، ثم رجع من الشرقية (يعنى شرقية النيل بصعيد مصر) إلى الفسطاط". واستغرق فى هذه النزهة أكثر من شهرين (لأربع بقين من شهر شعبان- مستهل ذى القعدة من سنة ٢٨١هـ/نوفمبر ٨٩٤م- يناير ٨٩٥م)[4]. هذا فضلاً عن زياراته المتكررة لدير القصير، على مقبرة من المعصرة حالياً فى طريق حلوان، بحيث صارت له غرفة بأعلى ذلك الدير "بناها أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون، لها أربع طاقات إلى أربع جهات، وكان كثير الغشيان لهذا الدير". وذلك حسب تعبير الشابستى الذى أكد

(١) المقريزى: خطط، جـ١ ص٣١٨.

(٢) ابن الداية: المكافأة، ص٢٠٥- ٢١٠؛ المقريزى: خطط، جـ١، ص٣١٩.

(٣) المقريزى: المصدر والجزء، ص٣١٨، وموضع العقاب المذكور بالنص يقع إلى الغرب من موضع أهرام أبى صير بالجيزة على مسيرة خمسة أيام بلياليها للمسجد. انظر: المصدر نفسه والجزء، ص٢٤٠.

(٤) ولاة مصر، ص٢٦٤.

على أن هذا الدير "من ديارات مصر التى تقصد للشرب والتنزه بها"[١]. كذلك الحال بالنسبة لدير وادى هبيب بأرض البحيرة الذى تردد عليه خمارويه عند خروجه للتنزه بذلك الإقليم[٢].

واقترن خروج خمارويه إلى الشام لتأمين نفوذه هناك بممارسة هوايته فى اللهو والتنزه، وشاع عنه ذلك حتى سماه صاحب تاريخ دمشق "خمار، بن أحمد بن طولون المعروف بخمارويه" ربما بقصد إشعارنا برائحة الخمر والسكر تفوح من اسمه[٣]. وقد بنى لنفسه قصراً بسفح جبل قاسيون قرب دمشق يشرب فيه الخمر[٤]. ومما روى عنه فى هذا المجال أنه أثناء تنزهه بمرج عذرا من ضواحى دمشق غنى له مغنيه فى الليل،وتعمد إبدال كلمة فى القصيدة بكلمة أخرى تتناسب وجو المكان الذى هم فيه "فأمر له أبو الجيش بمائة ألف دينار". وعندما احتج الكاتب على ضخامة المبلغ تساءل خمارويه عن كيفية التصرف "وقد أمرت ولست أرجع؟" فنصح الكاتب بأن يجعلها مائة ألف درهم. فقال خمارويه: "افعل، اطلقها له معجلة، يعنى المائة ألف درهم. وما بقى له نبسطها له فى سنين، يعنى المائة ألف دينار، حتى تصير إليه"[٥]. وتكرر الأمر أثناء خروجه ثانية للصيد عند نهر ثورا بدمشق؛ إذ جاءه إعرابى ومدحه بقصيدة شعرية، فلم يجد خمارويه ما يعطيه له فوراً، فأمر أتباعه بالإنعام

(١) الشابستى: الديارات، تحقيق كوركيس عواد،مطبوعات المجمع العلمى العراقى، بغداد ١٩٥١، ص١٨٤، ولاحظ أن سبب زيارة خمارويه لدير القصير يختلف تماماً عن زيارة أحمد بن طولون التى كانت لتفقد أحوال الرهبان بذلك الدير، واستطلاع كافة أخبار نصارى مصر من خلال الراهب أبى أندونة Antoine. عن ذلك راجع د. سيدة كاشف: أحمد بن طولون، ص٢١٧.

(٢) ساويرس بن المقفع: تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية (طبعة جمعية الآثار القبطية) جـ٢، م٢، ص٧٧.

(٣) ابن عساكر: تاريخ دمشق، هذبه ورتبه ابن بدران، ٧ أجزاء، مطبوعات المكتبة العربية بدمشق، ط١، سنة ١٣٢٩هـ/١٣٤٩هـ جـ٥، ص١٧٦. (والحافظ ابن عساكر ينقل هنا عن المؤرخ شمس الدين ابن قزاوغلى المعروف بسبط ابن الجوزى صاحب مرآة الزمان).

(٤) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٣، ص٦٤.

(٥) ابن عساكر: تاريخ دمشق، جـ٥، ص١٧٦-١٧٧.

عليه،وصار الإعرابى يطلب المزيد وخمارويه يجيبه، ثم عوض أتباعه بسخاء عما أعطوه للشاعر[1].

هذه الخلفية من الرفاهية والترف فى حياة الأمير خمارويه بن أحمد بن طولون كانت سبباً فى تلك المسحة الأسطورية التى فسر بها المؤرخون كيفية مقتله على أيدى خدمه، فجعلوه "كثير اللواط بالخدم معجباً به، مجترئ على الله عز وجل فى ذلك". وذكروا أنه رغب فى ممارسة الفاحشة فى الحمام مع أحدهم وذلك أمام زملائه، فلما رفض الخادم خجلاً من الموجودين بالحمام، أمرهم خمارويه بتعذيبه بوحشية حتى مات. مما جعل بقية الخدم يستفتون العلماء فيمن يفعل ذلك، فلما أفتوا بقتل من يفعله، قتلوه. بيد أننا نرجح الرواية الأخرى التى أكدت أن خمارويه علم بمغازلة أحد خدمه لإحدى حظاياه، فأخذته الغيرة وتوعد الجميع بالقتل، ولكن الجارية سبقت إلى تحريض الخدم على قتله، فذبحوه وهو فى فراشه. وهم طاهر ولؤلؤ وناشى وسابور ومما قط ونظيف، "فقتلوا جميعاً، وحملت رؤوسهم إلى الفسطاط". وحمل خمارويه إلى الفسطاط، فدفن بها[2].

ونعتقد أن خمارويه- رغم ميله الواضح للهّو والترف- بالقياس لمن حكم بعده، كان حلقة وسطى بين جد أبيه أحمد بن طولون وهزل الباقين من أفراد الأسرة الطولونية. فها هو **الأمير جيش بن خمارويه** قد نادى به بعض قادة الجيش بعد مقتل أبيه (٢٨٢هـ/٨٩٦م) "لما أراده الله من ذهاب الدولة الطولونية" حسب تعبير ابن سعيد عن القرطى[3]. رغم أنه

---

(١) نفس المصدر السابق والجزء والصفحات.

(٢) الكندى: ولاة مصر، ص٢٦٤. وراجع: ابن عساكر: جـ٥ ص١٧٨؛ وابن تغرى بردى، جـ٣، ص٦٣-٦٤.

(٣) ابن سعيد: المغرب، ص١٤٣. والقرطى المذكور هو المؤرخ أبو عبد الله محمد بن سعد القرطى. من بيت علم بمصر، ومن نسل الصحابى الجليل عمار بن ياسر. رحل إلى الهند واليمن، وألف لشاور- وزير الخليفة العاضد الفاطمى- بين سنتى ٥٥٨هـ و ٥٦٤هـ (١١٦٣م-١١٦٩م) كتاب لم يصلنا عن تاريخ مصر. فكان أحد المراجع الرئيسية لكتاب المغرب لابن سعيد وخاصة عن دول الطولونيين والاخشيديين والفاطميين، عن ذلك راجع: مقدمة تحقيق كتاب المغرب، لزكى محمد حسن والمحققين الآخرين، ص٤٦و ١٦٧.

بتوليه الحكم قد تخطى عقبة كبيرة تمثلت فى تقاعس كثير من قادة الجيش الطولونى عن مبايعته، لعدم حصولهم على مرتباتهم بسبب خلو الخزانة من أموال كان خمارويه قد أنفقها فى جهاز ابنته قطر الندى. ويبدو أن الذين وافقوا على ولايته رغبوا فى الاستفادة من صغر سنه، أو فى تغطية الصراع الخفى بينهم حتى ينجح الفريق الأقوى منهم فى فرض رأيه تجاه أحد أفراد الأسرة الطولونية الآخرين. ومع هذا، فإن الأمير جيش لم يرعوى بل "اشتمل على أمور أنكرت عليه"[1]. وتفاصيل ذلك أنه "اشتملت عليه طائفة من الجند، وحملوه على أمور كرهها عظم الجند"[2]. ولاريب أن أولئك الذين أصبحوا بطانته هم أول من نادى به أميراً علىمصر، ومال هو لتأييدهم فى وجوب التخلص من منافسيهم، وصار يعدهم بذلك، ويمنيهم بإحلالهم محل خصومهم فى وظائفهم، وكان يجهر بذلك كلما "أخذ منه النبيذ"[3].

وتمادى الأمير جيش فى الاستجابة لنزواته كصبى صغير (١٤ سنة) "لم يؤدبه الزمان، ولا مَحنَهُ التجارب والعرفان". فأقبل على اللهو والصيد ومجالس السكر والمجون، وزاد على ذلك باصطفائه بعض الزعار من دهماء العامة وأوباشهم حسب تعبير ابن تغرى بردى الذى ذكر منهم "غلام رومى لاوزن له ولا قيمة يعرف ببندقوش، ورجلان من عامة العيارين الذين يحملون الحجارة الثقال والعمد الحديد ويعانون الصراع، أحدهما يعرف بخضر والثانى يعرف بابن البواش. وغير هؤلاء من غلمان لم يكن لهم حال"[4]. ونظرة إلى تفاصيل مجالس لهو الأمير جيش توضح لنا ذلك الكم الكبير من المجون والتبذل، فقد "اشتغل بصفع من انضم إليه من الأراذل. وكان أحدهم يصفع الآخر فى مجلس منادمته، فيثب من جلوسه إذا جاءت صفعة قوية ويصيح: هذه وا لله أقوى من صفعة فلان. وكان له

(١) القريزى: خطط،جـ١، ص٣٢٢.

(٢) الكندى: ولاة مصر، ص٢٦٥.

(٣) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٣، ص٩٠.

(٤) المصدر نفسه والجزء، ص٨٨، وعن تفاصيل لباس العيارين وأسلحتهم كما هو موصوف بالنص، راجع د. محمد أحمد عبد المولى: العيارون والشطار البغاددة فى التاريخ العباسى، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٧م، ص٥٣-٦٦.

مضجك ساقط يضع فى..." إلى آخر تلك المشاهدة الخليعة، "والمجلس قد ارتج ضحكاً"[1].

وكانت نتيجة تلك المجالس العابثة، قرارات عشوائية باعتقال رجالات الدولة، وابتدأ الأمير جيش بالقبض على عمه أبى العشائر نصر، بتحريض هذه البطانة الفاسدة، ثم قتله. وكثر تهديده لقادة جيشه الذين بادروا بخلع طاعته وانتهزوا خروجه إلى منية الأصبغ للصيد، فخرج بعضهم إلى العراق- وهم نحو ثلاثمائة- ودخلوا فى طاعة الخليفة العباسى المعتضد بالله وصاروا يحرضونه على إسقاط النظام الطولونى. وخرج كذلك أمير دمشق وأمير الثغور عن طاعته. فى حين اتفق الباقون على خلع الأمير جيش وسجنوه ثم قتلوه فى سجنه، بعد أن ولى البلاد ستة أشهر "قطعها فى تخلف وإدبار وقطعها بين صفع وكأس تدار"[2].

وأقدم قادة الجيش الطولونى بعد ذلك على مبايعة **هارون بن خمارويه** (٢٨٣هـ/ ٨٩٦م)- وكان هو الآخر صبياً صغيراً- إظهاراً للولاء لبيت خمارويه، وتخوفاً من أن يلى الإمرة بعض إخوة خمارويه الناضجين. وقام بالوصاية عليه أبوجعفر محمد بن أبىّ وهو رجل ذو دهاء ومكر، أطلق العنان للأمير هارون فى التشاغل باللهو والسكر، واستمر قابضاً على أمور البلاد هو وأعوانه من كبار رجال الجيش. ولهذا ظهر الحصاد سريعاً فى شكل تفتت عصبية الجيش نتيجة ميل بعض القادة "ممن كره ولاية هارون بن خمارويه" لمبايعة ربيعة ابن أحمد بن طولون، فحضر من الإسكندرية بعد أن تمكن من تجنيد عدد كبير من أهل البحيرة "من البربر وغيرهم". ولكن أعوان الأمير هارون تمكنوا من احتواء هذه الأزمة بعد أن ثبت الجنود الموالون لهم فى المناوشات التى دارت عند مشارف الفسطاط بينهم وبين أعوان ربيعة الذى تعرض للأسر ثم مات تحت العقوبة[3]. وتخلل ذلك تعرض مصر للخطر

(١) ابن سعيد: المغرب، ص١٤٣.

(٢) الكندى: ولاة مصر، ص٢٦٥-٢٦٦، ابن سعيد: المغرب، ص١٤٣.

(٣) الكندى: ولاة، ص٢٦٦؛ المقريزى: خطط، جـ١، ص٣٢٢؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٣، ص٩٩-١٠٠. وعن ظروف ظهور البربر بأرض البحيرة فى أحداث تلك الفترة وسياسة ==

من جهة الشرق والغرب معاً، نتيجة ظهور دعوة الفاطميين فى المغرب، وظهور حركة القرامطة الشيعة فى جنوب الشام. وفشلت الجيوش الطولونية فى القضاء على هؤلاء القرامطة، بل كثيراً ما انهزمت أمامهم انهزاماً مخزياً. وتنبهت الخلافة العباسية إلى ضعف الطولونيين، فصممت على استرداد مصر من أيديهم قبل أن تقع فى أيدى القرامطة أو الفاطميين[1].

ويعنينا فى هذا المقام، أنه بينما كان الجيش البرى العباسى بقيادة محمد بن سليمان الكاتب يتقدم الى مصر تصحبه وحدات من الأسطول العباسى بقيادة أمير البحر دميانة، كان الأمير هارون غارقاً فى ملذاته، متشاغلاً باللهو والطرب، وأدى به عدم إتزانه للتدخل بنفسه بين طوائف جيشه المتصارعة "فرماه بعض المغاربة برمح فقتله". وكان ذلك (سنة ٢٩٢هـ/٩٠٤م) بتحريض عميه شيبان وعدى ابنى أحمد بن طولون اللذين حقدا على هارون توليه الحكم وهو غير جدير بذلك، وإقدامه على قتل أخيهما ربيعة[2]. وقيل فى رواية أخرى إنهما دخلا على هارون "وهو ثمل فى شرابه، فقتلاه"[3].

ولم تجد جهود **شيبان بن أحمد بن طولون** – الذى تولى الحكم عقب مصرع هارون (صفر ٢٩٢هـ/ ديسمبر ٩٠٤م)– فى وقف تقدم القائد العباسى، وانتهى الأمر باستسلام الجيش الطولونى ودخول محمد بن سليمان الفسطاط فى شهر ربيع الأول سنة ٢٩٢هـ

== الإدارة الطولونية فى مداراتهم حتى لا تستميلهم أحداث الغليان بالمغرب آنذاك كمقدمة لظهور الدولة الفاطمية هناك، انظر: د. أحمد عبد اللطيف حنفى– الدور السياسى والحضارى للجاليات المغربية فى مصر الإسلامية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب جامعة طنطا، سنة ١٩٨٧م، ص٦١– ٦٣.

(١) د. أحمد مختار العبادى: فى التاريخ العباسى والفاطمى، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية ١٩٨٢، ص١٣٨.

(٢) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، طبعة بيروت، جـ٧، ص١٩٠–١٩١، ابن سعيد: المغرب، ص١٤٥، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٣، ص١٠٩–١١٠و ١٣٤–١٣٥.

(٣) الكندى: ولاة مصر، ص٢٦٩.

(يناير ٩٠٥م). فأمر بحرق القطائع، فزالت ولم يبق إلا المسجد، وأخرج الطولونيين جميعاً وقوادهم إلى بغداد "فلم يبق بمصر منهم أحد يذكر". وسقطت بذلك دولة الطولونيين بمصر ضحية انغماس أمرائها الأخيرين فى الترف والتشاغل باللذات[١].

ثانياً: طبقة كبار رجال الدولة الطولونية:

كان ظهور هذه الطبقة- حسب تعبير د. حسن أحمد محمود- من التطورات الجديدة التى طرأت على المجتمع المصرى فى العصر الطولونى، لأن الولاة فى العصر السابق كانوا متواضعين فى حياتهم ونفوذهم ومواردهم، وبالتالى كان معاونوهم والمحيطون بهم متواضعين لتواضعهم. أما هذه الطبقة التى ظهرت فى العصر الطولونى فكانت تتألف من قادة الجيش بعناصره المختلفة حيث كانوا يتولون الوظائف الإدارية كذلك، ومن زعماء الغلمان الطولونيين، وحجاب القصر ورجال البلاط،ومن كبار الكتاب والموظفين الإداريين، ومن القضاة الذين تقربوا من الطولونيين، ومن كبار التجار. وقد أشارت الروايات إلى أنهم حازوا النفوذ الضخم واقتنوا الثروات العظيمة التى قومت بمئات الألوف أو ملايين الدينارات، وعاشوا عيشة الترف والرخاء فى قصورهم الخاصة فى القطائع أو الفسطاط أو العسكر متشبهين بالأمراء الطولونيين[٢].

---

(١) الكندى: ولاة، ص٢٧٠-٢٧١؛ المقريزى: خطط، جـ١، ص٣٢٢، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٣، ص١١١و ص١٣٥-١٣٩. وحكى الكندى (ص٢٧٣) عن الشاعر أحمد بن أبى يعقوب أنه قال عن ذلك أبيات شعرية منها:

مارأينا من آل طولون إلا ... سادراً (أى لاهياً) فى بطالة مرهوناً

(٢) د. حسن أحمد محمود: حضارة مصر فى العصر الطولونى، ص١٨٥-١٩٢. وقد عرض لحوالى ١٧ من قادة ومشاهير ذلك العصر، وأسرة الماذارنيين وبنى مهاجر الذين تأثل أفرادهما المجد والنفوذ. ويعد ابن المفضل وكيل أحمد بن طولون والمتصرف فى نفقات قصره نموذجاً لذلك. فقد بلغت ثروته التى صادرها أحمد بن طولون عندما غضب عليه مائة ألف دينار "عيناً وثمن متاع". وقد أعطيت كلها كنفقة جديدة للحسين بن مهاجر عند توليه البريد للأمير أحمد بن طولون. (ابن سعيد: المغرب، ص١٠٦-١٠٧).

وهؤلاء كان من الطبيعى أن تتضخم نسبة مشاركتهم فى مجال اللهو، بحيث ثبت على أحدهم أنه كان يؤى فى بيته "امرأة طبالة لا سبيل عليها (بمعنى أنها كانت تمارس نشاطها بحرية تامة!!) تدخل إليه وتبيت عنده كل ليلة"[١]. وإن صحت مقابلة هذه الرواية بأخرى ذكرها ابن الداية، فإن الفاعل هو ثابت بن سليمان الذى كان أبوه كاتباً لأحمد بن طولون ووصف هو بأنه "كان يستزير الفواسد من النساء". وتكون المرأة- إلى جانب ممارستها حرفة الطبالة- معروفة بالبغاء ومرافقة أحد الجلادين الذى حكى ابن الداية عنه أنه أحزنه ميل رفيقته لمعاشرة ثابت بن سليمان الكاتب، فذهب إليه واستعطفه كى يتركها ترجع إليه لعدم صبره على مفارقتها قائلاً: "كانت مهجتى عندك البارحة، فإن رأيت أن تهبها لى فلك منها عوض وليس لى عنها مَعْدَل". ولكن ثابت بن سليمان رفض "وصاح فى وجهه وأمر بإبعاده"[٢]. وثبت على آخر من أعوان الأمير أحمد بن طولون، أنه اقتنى غلاماً أمرداً كان يفسق به بعد أن "ينصب له طرة وقرطقة (أشبه بقمصان نوم النساء) بأثواب لايسمح بها إلاّ قلب فاسق"[٣].

وقد شهد بجميع ذلك أحد العوام من عائلة بنى الجراح المصريين، الذى حمّل الأمير أحمد بن طولون مسئولية ذلك واعتبره مضيعاً للدين، وجهر برأيه هذا لابن طولون معترضاً طريق عودته إلى قصره منصرفه من صلاة الجمعة[٤]. ويبدو أن أحمد بن طولون قد أحفظه أسلوب هذا الرجل، أو أنه رغب فى الإكبار بجنوده فى أعين الناس بعدم إظهار سلوكهم الماجن ومن ناحيته يحاسبهم فيما بينه وبينهم حساباً عسيراً بعد قراءة تقارير ثقاته عنهم. فتتبع ملابسات القضية وثبت لديه أن هذا الشاكى قد اشتهر- إلى جانب أسلوبه الفظ- بتتبع عورات الناس وتهديدهم بالشهادة الزور عليهم "وضج الحضور بالشهادة على

(١) البلوى: سيرة أحمد بن طولون، ص٢١٤-٢١٥؛ ابن سعيد: المغرب، ص١١٠.

(٢) ابن الداية: المكافأة، ص١١٤-١١٦. وقد تعرض ثابت بن سليمان هذا للموت تحت العقوبة بأمر أحمد بن طولون جزاء خيانته لأبيه وسوء أخلاقه. انظر كذلك: البلوى: ص٢٤٢-٢٤٣.

(٣) ابن سعيد: ص١١٠.

(٤) نفسه، ص١٠٩-١١٠.

ذلك". فأمر بمعاقبته قائلاً: "دللتنا على عوراتك وأعلمتنا أنك من المتجسسين وأهل الظن السوء، و لله ستر على خلقه، وأنا أرى أنك إلى التأديب أحوج منا إلى التأنيب... فأمر بضربه مائة سوط وطاف به وحبسه"[1].

وشهد أحد جواسيس أحمد بن طولون لديه على جندى تركى من أعوان الأمير، أنه كان يستتر فى بيته كل يوم بعد انتهاء عمله ويحتاط فى ذلك حيطة كبيرة، من أجل شرب النبيذ ساعات كثيرة وسماع القيان، حتى يصل لحد السكر، فيظهر مكنون نفسه أنه من جواسيس الموفق طلحة- عدو أحمد بن طولون اللدود بمقر الإدارة العباسية بالعراق- وأنه يتحين الفرص لتنفيذ خطته بالقضاء على ابن طولون. فما كان منه إلاّ أن عالج الموقف بحكمة، وتريث فى إخراج هذا الجندى إلى ثغرطرسوس للاستفادة بجهوده فى قتال الروم[2].

ويحدثنا ابن سعيد- نقلاً عن القرطى- عن طقوس غريبة مارستها فئات معينة بمصر حداداً على وفاة الأمير أحمد بن طولون، تعبيراً عن حزنهم الشديد على فقد من تساهل معهم فى حريتهم الشخصية. من ذلك طوائف الحرس الخاص بابن طولون الذين طافوا بالطرقات باكين "والرعية يبكون معهم وأهل الدعارة (كذا بالنص وأكد المحققون على ذلك)". ويبدو أنهم"أهل الزعارة" بمعنى الدهماء من الزعار والعيارين والشطار أو من سموا فيما بعد بالحرافيش. وأقام جواريه مأتماً "ورقصن عليه بالعيدان والألحان، وتحرم جماعة من غلمانه شرب النبيذ" [3].

وحرص إسماعيل بن أسباط- أحد الأثرياء بمدينة القطائع خلال عهد خمارويه- على

---

(١) نفسه والصفحة.

(٢) البلوى: ص١١٨-١٢٢.

(٣) ابن سعيد: ص١٣١. ولاحظ أن قراءتنا "أهل الدعارة" على أنها "أهل الزعارة" من الزعار والعيارين والشطار تتفق والإشارة السابقة عن الرجلين من العيارين خضر وابن البواش اللذين اصطفاهما الأمير جيش بن خمارويه.

إقامة الحفلات الصاخبة بقصره المعروف بدار الخيل. وكانت تلك الدار تقع أمام منظرة الأمير أحمد بن طولون التى بميدان سباق الخيل فى مدينة القطائع. وعرف عنه معاقرته الخمر مع ندمائه فى سهراته[١].

وفى حادثة فريدة فى مجالها لم نعثر على مثيل قبلها، اعتاد القاضى أبو زرعة محمد بن عثمان بن إبراهيم الشافعى- الذى استقضاه الأمير هارون بن خمارويه- تناول مخدر الحشيش لإزالة ماكان يشعر به من ألم الأسنان. وقد أكد ابن زولاق على أن هذا القاضى لم يكن يكتفى بوصف ذلك لأصحابه عند تعرضهم لمثل هذا الألم بل كان "يدفع إلى صاحبه حشيشة، فيسكن". بمعنى أنه كان يضع يده على مصدر دائم يوفر له الحصول على ذلك المخدر[٢]. بيد أن القاضى أبا زرعة تورع عن وصف تلك الرقية أو العلاج للوزير الحسين ابن أحمد الماذرائى حتى لايبدو أمامه فى صورة المدمن خاصة بعد أن حدثت بينهمامصاهرة حينما تم زفاف ابنة الوزير الماذرائى إلى الحسين بن القاضى أبى زرعة[٣]. ولاشك أن هذه الرواية تنهض دليلاً على أن تناول الحشيش قد عرف فى المشرق قبل التاريخ المتفق عليه (خلال منتصف القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى) وذلك من خلال ما هو معروف عن طائفة الفداوية الشيعة الإسماعيلية وزعيمهم الحسن الصباح الذى كان يستخدم مخدر الحشيش للتأثير عليهم وسموا فى التاريخ بالحشاشين[٤]. وإن كان المقريزى

---

(١) ابن الداية: المكافأة، ص٢٠-٢١.

(٢) ابن حجر العسقلانى: رفع الإصر عن قضاة مصر، ذيل على كتاب القضاة للكندى الذى قام على تحقيقه رفن جست (طبعة بيروت ١٩٠٨) ص٥٢١. وقد ترجم لهذا القاضى صفحات ٥١٨-٥٢٣.

(٣) ابن حجر: رفع الفصر، ص٥٢١-٥٢٢. ولاحظ نسبة الترف والمبالغة فى وصف حفل الزفاف والأموال والهدايا التى وزعت على الحاضرين.

(٤) راجع وصف هذه الجماعة عند الرحالة ماركو بولو، ترجمها عن الانجليزية عبد العزيز جاويد، سلسلة الألف كتاب الثانى (رقم ٢٠١) مطبوعات الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة، ط٢، سنة ١٩٩٥م.

وهناك رأى آخر ينفى عنهم تعاطى الحشيش وإنما مغيبات أخرى كالأفيون أو الخمر. ويعزو تسميتهم بالحشاشين لاضطرارهم أثناء تعرضهم للحصار لأكل حشيش الأرض أو العشب. راجع: محمد عثمان الخشت: حركة الحشاشين. مطبوعات مكتبة ابن سينا، القاهرة ١٩٨٨م.

يؤكد على ارتباط الحشيش بطائفة المتصوفة فى المشرق خلال القرن السادس الهجرى (ق١٢م) وسماها حشيشة الفقراء، ونسب إلى المتصوف حيدر المتوفى بنواحى خراسان (٦١٨هـ/١٢٢١م) اكتشاف هذا النبات[١].

ومن رجال هذه الطبقة كذلك محمد بن على بن الخليج المعروف بالخليجى الذى قام بثورته المشهورة (ذو القعدة ٢٩٢هـ- رجب ٢٩٣هـ/ سبتمبر ٩٠٥م-مايو ٩٠٦م) لإعادة الدولة الطولونية بعد سقوطها. وهو من أبناء الفسطاط، والتحقق بخدمة الطولونيين وأصبح من قادة الجيش العاملين تحت قيادة صافى الرومى. ورغم أنه شغل هذه الأشهر بتجميع الأنصار لمواجهة القوات العباسية التى تتابع حضورها الى مصر، إلاّ أن ابن تغرى بردى يؤكد أن ابن الخليج كان لديه الوقت للإنكباب "على شرب الخمر واللهو". كأن ذلك كان قاعدة لحكام هذه الدولة بصفة عامة[٢].

ثالثاً: طبقة العامة:

أخذ الشكل العام لتلك الطبقة يتحدد فى العصر الطولونى، وذلك بعد أن بدأت عمليات التفاعل الحضارى تؤتى أكلها بين الفاتحين المسلمين العرب ونصارى مصر ويهودها. وإزداد من ثم انتشار الإسلام واختفت فى المقابل ثورات الأقباط،بحيث أصبح المسلمون العرب أغلبية وغير المسلمين أقلية يمكن وصفها بأنها كبيرة العدد كبيرة الأثر[٣]. وقد سبق القول إن قد اختلف مع أفراد هذين القطاعين، وذلك منذ عصر الولاة.

أ - فقد تمتع **أهل الذمة** بحقوق عديدة فى هذا المجال، بحيث أشارت وثائق البردى إلى

---

(١) المقريزى: خطط، جـ٢، ص١٢٦-١٢٧

(٢) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٣، ص١٤٩. وعن تفاصيل ثورة ابن الخليج انظر: المصدر نفسه والجزء، ص١٤٧-١٥٥؛ الكندى: ولاة مصر، ص ٢٧٩-٢٨٢؛ المقريزى: الخطط، جـ١ ص٣٢٧.

(٣) د. حسن أحمد محمود: حضارة مصر فى العصر الطولونى، ص١٩٢-١٩٥. وقد تتبع سيادته العوامل التى أدت إلى هذا التغير الحضارى ونتائجه التى منها اختفاء الجزية كبند أساسى من بنود الإيرادات فى العصر الطولونى.

احتراف بعضهم مهنة بيع الفقاع مثل "بلوتة" صاحب الفقاع[١]، و"أبى ذكر" الذى اشترى كمية من العسل لعمل فقاع[٢]، ومثل "مينا الخمّار"[٣]. وكذلك "قزمان الكرّام" المعروف ببيع النبيذ[٤]، ورفاقه "شنودة بن هجير"[٥]، و "يحنس"[٦]، و"بجوش"[٧]، و"كيل"[٨] الذين وردت اسماؤهم فى كشوف دافعى الجزية خلال القرنين الثانى والثالث الهجريين (٨-٩م). كذلك أظهرت وثائق البردى بعض الحالات لمحترفى الغناء وضرب الدفوف من أهل الذمة بمصر، مثل "أبهيوة بن أفيادة" الدفاف، و"بقطر بن بقام" اللذين ورد اسماهما ضمن دافعى الجزية منتصف القرن الثالث الهجرى (منتصف التاسع الميلادى)[٩]. ومثل "هميسة المغنى"[١٠].

---

(١) سعيد مغاورى: الألقاب والحرف والوظائف، ص٥٧٦. وقد قام على نشر هذه البردية المستشرق مارجليوث فى كتالوجه عن البرديات العربية الموجودة بمكتبة جون رايلاندز بمانشستر، سنة ١٩٣٣م.

(٢) سعيد مغاورى: المرجع السابق، ص٥٧٧، وقد قام على نشر هذه البردية الموجودة بمكتة دار الكتب المصرية المستشرق جروهمان ضمن مجموعته، جـ٥، ص١٤٧، برقم ٣٤٣.

(٣) سعيد مغاورى: المرجع نفسه، ص٣٥٦. وتوجد هذه البردية ضمن مجموعة برديات شوت راينهاردت بجامعة هايدلبرج بألمانيا وتحمل رقم سجل Inv. ARAB. 132R

(٤) سعيد مغاورى: نفسه، ص٧٩٤. وتوجد هذه البردية ضمن مجموعة دار الكتب المصرية التى قام على نشرها المستشرق جروهمان، جـ٤، ص١٩٨-٢٠١ برقم ٢٦٨.

(٥) سعيد مغاورى: نفسه، ص٧٩٣. والبردية نشرها جروهمان، جـ٤، ص٤٢- ٤٥ برقم ٢٢٣.

(٦) المرجع نفسه، ص٧٩٣-٧٩٤. ولاحظ أن يحنس الكرام وبجوش الكرام قد ورد اسماهما معاً فى ذات البردية التى قام على نشرها جروهمان، جـ٤، ص٩٩-١٠٤.

(٧) المرجع نفسه والصفحات.

(٨) نفسه، ص٧٩٤. وقد نشرت هذه البردية كذلك ضمن مجموعة جروهمان، جـ٦، ص٦٤-٦٥، برقم ٣٨٥.

(٩) نفسه، ص٤٢٣. وقد نشرت هذه البردية كذلك ضمن مجموعة جروهمان، جـ٣، ص٢١٣-٢١٧، برقم ٢٠٦.

(١٠) نفسه، ص٨٥٢. وتوجد هذه الوثيقة ضمن أوراق الكاغد المحفوظة فى مجموعة الأرشيدوق راينر بالنمسا، رقم سجل PERF. 7437 وأخرى برقم سجل PERF. 8129.

وكانت احتفالات أهل الذمة بمناسباتهم الخاصة فرصة لشيوع ظاهرة تناول الخمور وانتشار الملاهى. من ذلك ما ذكره المقريزى عن احتفالات النصارى بعيد الشهيد (الموافق ٨ بشنس= شهر مايو من كل عام) "ويكون ذلك اليوم عيداً ترحل إليه النصارى من جميع القرى ويركبون فيه الخيل ويلعبون عليها... وينصبون الخيم على شطوط النيل وفى الجزائر. ولا يبقى مغن ولا مغنية ولا صاحب لهو ولا رب ملعوب ولا بغى ولا مخنث ولا ماجن ولا خليع ولا فاتك ولا فاسق إلاّ ويخرج لهذا العيد.. ويتجاهر هناك بما لايحتمل من المعاصى والفسوق وتثور فتن وتقتل أناس. ويباع الخمر خاصة فى ذلك اليوم بما ينيف على مائة الف درهم فضة. وباع نصرانى فى يوم واحد باثنى عشر ألف درهم فضة من الخمر"[١]. وعد المقريزى كذلك أربعة وعشرين عيداً لنصارى مصر غير يوم النوروز، هى: عيد البشارة، وعيد الزيتونة (أو أحد الشعانين)، وعيد الفصح، وعيد خميس الأربعين، وعيد الخميس، وعيد الميلاد، وعيد الغطاس، وعيد الختان، وعيد الأربعين، وخميس العهد، وسبت النور، وأحد الحدود، والتجلى، وعيد الصليب[٢]. وأكد ساويرس على ما كان يحدث فى هذه الاحتفالات من مجون وتبذل وسقوط ضحايا نتيجة ذلك. مثلما حدث فى مدينة الإسكندرية أثناء الاحتفال بذكرى الشهيد مارمينا أخريات عصر الولاة، حينما "اجتمع هناك قوم بهم شياطين، قفز واحد منهم ووثب على آخر مثله. ولم يزالوا يتخانقوا (كذا بالنص) إلى أن مات أحدهما"[٣]. أما الرحالة والجغرافى المسعودى فقد عد شاهد عيان على الاستمرار الاحتفال بعيد الغطاس بمصر خلال سنة ٣٣٠هـ (وبالتحديد ليلة ١١ طوبة الموافق ٧ يناير ٩٤٢م) وأكد على اشتراك المسلمين مع النصارى فى هذا الاحتفال

(١) المقريزى: الخطط، جـ١، ص٦٨-٦٩.

(٢) المصدر نفسه والجزء، ص٢٦٤-٢٦٩.

(٣) ساويرس: تاريخ البطاركة (طبعة جمعية الآثار القبطية) م٢، ج١، ص٢-٣. وقد تدخل حاكم الاسكندرية آنذاك المدعو أحمد بن دينار من قبل والى مصر عبد الواحد بن يحيى الوزير (ذو القعدة ٢٣٦هـ آخر صفر ٢٣٨هـ/ مايو ٨٥١م- اغسطس ٨٥٢م) وتشدد فى معاملة بطريرك النصارى المسمى قزما، وصادر ماقد جمعه من نذور وتبرعات النصارى فى هذا الموسم

وبحضور حاكم مصر آنذاك محمد بن طغج الإخشيد[١]. وتأكد لدى المقريزى أخيراً أنه فى شهر مسرى من كل عام، الذى هو آخر شهور السنة القبطية (المقابل لشهر أغسطس الميلادى) "يعصر قبط مصر الخمر،ويعمل الخل من العنب"[٢].

واشتهرت كذلك أقاليم معينة بمصر بصناعة الخمور، مثل الإسكندرية ودمنهور لانتشار العديد من الكنائس والأديرة، وبالتالىمعاصر النبيذ[٣]. وفى إقليم مريوط، انتشرت مزارع الكروم رغم صعوبات الرى القائم هناك على ماء المطر، وذاعت شهرة النبيذ المريوطى. وممن حرص على تناوله بشكل يومى عقب غذائه الأسقف الخلقدونى بمدينة الاسكندرية المدعو "تاوضروس" واعتبرها ساويرس دليلاً على كثرة خطاياه[٤]. هذا فضلاً عن المتنزهات التى قصدها الناس لممارسة اللهو وشرب المسكرات، مثل دير القصير بطريق حلوان ودير وادى هبيب بإقليم البحيرة اللذين سبق الحديث أن الأمير خمارويه بن أحمد بن طولون كان يتردد عليهما، ومثل بركة لحبش بظاهر مدينة الفسطاط على مقربة من تلال المقطم[٥]، ودير مارحنا على مقربة من تلك البركة حيث يوجد بئر نجاتى وشجرة جميز "يجتمع الناس إليها ويشربون عندها.. فهذا الموضع من مواضع اللعب ومواطن اللهو والطرب، نزه فى أيام النيل وزيادته وامتلاء البركة.. ولا يكاد يخلو من المتطرحين

(١) المسعودى: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، مطبوعات المكتبة التجارية الكبرى بمصر، ط٤، القاهرة سنة ١٩٦٤، جـ١، ص٣٤٣-٣٤٤.

(٢) المقريزى: خطط، جـ١، ص٢٧٣.

(٣) د. عاصم محمدرزق: مراكز الصناعة فى مصر الإسلامية، سلسلة الألف كتاب الثانى عدد ٦٨، مطبوعات الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٩، ص٢٧و ١١٠و١١٢؛ د.السيد طه السيد: الحرف والصناعات فى مصر الإسلامية، سلسلة الألف كتاب الثانى عدد ٩٥، مطبوعات الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩١م، ص٣٦٣.

(٤) ساويرس: تاريخ البطاركة (طبعة معهد الدراسات القبطية) ص١٢٢؛ (وطبعة جمعية الاثار القبطية) م٢ جـ١، ص٣٥-٣٦.

(٥) المقريزى: خطط، جـ٢، ص١٥٢-١٥٥.

والمتنزهين"[1]. ومثل دير طمويه على الضفة الغربية للنيل إلى الشمال الغربى من حلوان بنحو ٥ أميال[2]، ودير نهيا بالجيزة[3].

ب- وبالنسبة **للمسلمين العرب** الذين وقعوا فى براثن ذلك، فقد لوحظ منذ عصر الولاة أن التشدد كان هو الطابع العام للتعامل معهم إعمالاً للقاعدة الشرعية بتحريم الخمر واعتبار أن ما أسكر كثيره فقليله حرام. ولوحظ كذلك أن هذا التشدد كان من جانب العامة الذين شاركوا الولاة وفقهاء وعلماء السنة فى التنديد بمن ثبت عليه تعاطى شئ من المسكرات أو ميل للمشاركة فى الغناء والملاهى. مثلما فعلوا مع عبد الرحمن بن عبد الله العمرى القاضى بمصر (صفر ١٨٥هـ- جماد أول ١٩٤هـ/ مارس ٨٠١م- مارس ٨١٠م) الذى قيل عنه: "كان العمرى يشدو بأطراف الغناء على مغانى أهل المدينة. ولم يكن بمصر مُسْمعةٌ إلاّ ركب إليها يسمع غناءها، وربما قَوّم ما انكسر من غنائها. ويرى ذلك من الدين". وصار من المعتاد أن يشاهده الداخل إليه فى منزله بعد انتهاء مجالس حكمه، وهو يترنم بأبيات من الشعر الغنائى وقد "صَقّر يديه وكَحّل عينيه واتشح بإزار معصفر وادّهن. وهو يضرب بأصابع يديه بعضها على بعض". وقد هجاه أحد الشعراء بمصر قائلاً[4]:

كم كم تطول فى قراتك ... والجور يضحك من صلاتك

تقضى نهارك بالهوى ... وتبيت بين مغنياتك

ويبدو أن مسلك العمرى هذا مع تعدد أخطائه فى إدارة شئون القضاء، حتى إنه

---

(١) الشابستى: الديارات، ص١٨٧-١٨٨.

(٢) المصدر نفسه، ص١٩٤-١٩٥.

(٣) نفسه، ص١٩١-١٩٣. وانظر الأبيات الشعرية التى قالها الشاعر الماجن عباس بن البصرى- وهو من شعراء العصر الإخشيدى- عن ذكرياته بدير نهيا. وراجع كذلك: آدم متز: الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة، جزآن، مطبوعات لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط٣، سنة ١٩٥٧، جـ٢، ص٢٣٦، وما بعدها.

(٤) الكندى: كتاب الولاة والقضاة (تحقيق رفن جست) ص٣٩٦-٤٠٤، ابن سعيد: المغرب، ص٣٥٥.

اتهم بوضع يده على أموال الأوقاف، قد تسبب فى صرفه عن القضاء على نحو مهين، بل إنه تعرض للسجن هو ومعاونوه. والتف بعض المصريين حول المبشر بقرار العزل واحتفى به أحدهم قائلا[1]:

برحمـــــة الله ورأى الفضـــــل نحى عـن الحكـم عـدو العـدل

هـذا سـوارى لرسـول العـزل

وعد من خطايا القاضى أبى بكر هاشم البكرى- التالى للعمرى، والذى تولى محاكمته وسجنه لثبوت تهمة وضع يده على أموال الأوقاف- أنه "كان لايجلس للقضاء حتى يتغدى ويشرب ثلاثة أقداح نبيذاً". واستمر على ذلك حتى وفاته وهو فى القضاء مستهل المحرم من سنة ١٩٦هـ (أواخر سبتمبر ٨١١م)[2]. بيد أن هذا القاضى كان يمثل الاعتدال فى اقتدائه- فى مذهبه الحنفى- بإمامه أبى حنيفة النعمان الذى أثر عنه إباحته شرب القليل من نقيع التمر أو الزبيب أو الحنطة، طالما لم يصل بصاحبه إلى حد السكر، باعتباره لم يتعرض للغليان أو التخمير[3]، "بل هو جائز، فلا حد فيه ولا ترد به الشهادة. فإن كان لايسكر الشخص إلاّ أربعة أقداح، فلا يحرم عنده إلاّ القدح الرابع"[4]. ووجه

(١) الكندى: المصدر السابق، ص٣٩٨-٤٠٠؛ ابن سعيد: المصدر السابق، ص٣٥٥-٣٥٦.

(٢) الكندى: المصدر نفسه، ص٤١٢-٤١٦؛ ابن سعيد: المصدر نفسه، ص٣٥٦.

(٣) انظر ما سبق (ص ١١٠، هامش ٢)

(٤) د. أحمد فتحى بهنسى: الخمر والمخدرات فى الإسلام، ص٦٦-٦٧. ولاحظ الكلمة الموجزة التى أثرت عن الإمام أبى حنيفة فى أمر النبيذ "لو أعطيت الدنيا بحذافيرها لا أفتى بحرمته لأن فيه تفسيق بعض الصحابة، ولو أعطيت الدنيا بحذافيرها ما شربته، لأنه لا ضرورة فيه". يشير الإمام بذلك إلى اتخاذ بعض الصحابة رضوان الله عليهم كعمر بن الخطاب نقيع التمر أو الشعير قبل تخميره وسيلة لتسهيل الهضم، وقال عن ذلك: "إنا نشرب هذا النبيذ الشديد ليقطع لحوم الإبل فى بطوننا أن تؤذينا". انظر: المرجع نفسه، ص٦٢-٦٣.

وراجع: السرخسى: المبسوط فى الفقه الحنفى، جـ٢٤، ص٥. حيث يقول ما نصه: "وقد دل على هذه الجملة، الاثار التى بدأ بها محمد (بن الحسن الشيبانى) رحمه الله بها الكتاب. فمن ذلك حديث زياد قال: سقانى ابن عمر رضى الله عنه شربة ما كدت أهتدى الى منزلى. فغدوت عليه من الغد، فأخبرته بذلك، فقال: مازدناك على عجوة وزبيب. وابن عمر رضى الله كان معروفاً بالزهد ==

الاعتدال فى الاقتداء عند القاضى البكرى يتضح من تأكيد النص أنه كان "من أهل الكوفة يذهب مذهبَ أبى حنيفة"، وأنه لم يكن يزيد على الأقداح الثلاثة، ويجعل ذلك قبل جلوسه للقضاء فقط[١]. بمعنى أنه كان يمثل بعض الأحناف الذين "قيدوا جواز شرب القليل الذى لايسكر بما إذا كان الشرب للتقوىّ على الجهاد ونحوه، لا بمجرد اللهو"[٢].

وعلى العكس من ذلك كان القاضى أبو بكر محمد بن أبى الليث الخوارزمى (ربيع آخر ٢٢٦هـ- شعبان ٢٣٥هـ/ فبراير ٨٤١م- مارس ٨٥٠م) نموذجاً سيئاً لمتعاطى النبيذ بمجرد اللهو ومنادمة السفهاء. فقد حكى بعض شهود العيان أنهم رأوه فى مجلس القضاء بجامع عمرو بن العاص "وهو مشجوج الوجه وفى يده منديل يستر به شجاجه. فتواتر الخبر أنه عربد على شيخ كان ينادمه، فشجه ذلك الشيخ". وكان أحد أصحاب القاضى الخوارزمى قد دعاه وآخرين قبل ولايته القضاء بأيام إلى وليمة بمنزله بالفسطاط وأعد لهم الطعام وشراب النبيذ، ثم اعترف بأنه "كان أجودنا شرباً". وأخيراً تحدث أحد العوام بمصر عن ذكرياته الأليمة من جراء مجون القاضى ابن أبى الليث الخوارزمى عندما رآه صديق له وبوجهه آثار منكرة، فسأله عن السبب، فأجاب الأول: "دخلت البارحة على القاضى وعنده إخوانه. فلما رآنى قال لهم اطفئوا السراج، فطفئ. وقاموا يضربون وجهى ورأسى". وقد أكد هذا العامى لصاحبه أنه دفع عن نفسه هذا الأذى قائلاً: "ومع ذلك فلم أقصر فيهم، وا لله لقد صفعت القاضى"[٣]. ولاشك أن القاضى ابن أبى الليث بذلك أعطى لنفسه بعداً خلقياً شاذاً، إلى جانب ما اشتهر عنه كسيف نقمة للمعتزلة ضد مخالفيهم من الفقهاء والقضاة بمصر[٤]. فكان من الطبيعى أن يعزل عن منصبه ويستدعى على نحو

== والفقه بين الصحابة رضى الله عنهم، فلا يظن به أنه كان يسقى غيره ما لايشربه ولا أنه كان يشرب ما يتناوله نص التحريم".

(١) ابن سعيد: المغرب، ص٣٥٦.

(٢) د. أحمد فتحى بهنسى: المرجع السابق، ص٦٧.

(٣) الكندى: كتاب القضاة، ص٤٤٩-٤٦٧؛ ابن سعيد: المغرب، ص٣٥٩. وجملة "وا لله لقد صفعت القاضى" صيغة ابن سعيد، بينما ذكرها الكندى "وا لله لقد حققت فيهم القاضى".

(٤) د. سيدة إسماعيل كاشف: مصر فى فجر الإسلام، ص١٧٩-١٨٠.

مهين إلى بغداد حيث حوكم وحبس[1].

ومن العوامل التى ساعدت كذلك على تحجيم ظاهرة تعاطى المسكرات والإقبال على مجالس اللهو والغناء بمصر خلال عصر الولاة، تلك الحمية الدينية التى سرت بين أفراد المجتمع نتيجة حضور الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعى صاحب المذهب المعروف باسمه إلى مصر وإقامته بها حتى وفاته (٢٠٤هـ/٨٢٠م)[2] وكذلك السيدة نفيسة ابنة الحسن بن زيد صاحبة المشهد المعروف إلى الآن (٢٠٨هـ/٨٢٤م)[3]. وذلك إلى جانب معاصريهما من علماء مصر الأجلاء الذين مافتئوا يحذرون من عواقب الصخب الاجتماعى الذى تميزت به مدينة الفسطاط آنذاك[4]. ولهذا كان من المنطقى أن يختتم عصر الولاة بتضافر جهود الولاة الثلاثة الأخيرين على مصر لمنع الرذائل بشتى أنواعها واتخاذ التدابير اللازمة لذلك. فالوالى يزيد بن عبد الله التركى (رجب ٢٤٢هـ- ربيع أول ٢٥٣هـ/ نوفمبر ٨٥٦م- مارس ٨٦٧م) أمر بإخراج المؤنثين من مصر وضربهم ونفيهم على أن يطاف بهم فى الشوارع تشهيراً بهم، ومنع كذلك من النداء على الجنائز وضرب المخالفين، وتعطيل الرهان على الخيل[5]. وأمر الوالى مزاحم بن خاقان (ربيع أول ٢٥٣هـ- مطلع المحرم ٢٥٤هـ/ مارس ٨٦٧م-يناير ٨٦٨م) بمنع النساء من الحمامات

(١) السيوطى: حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، جزآن، مطبعة عيسى البابى الحلبى بالقاهرة، ط١، سنة ١٩٦٨، جـ٢، ص١٤٤.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، ط١، القاهرة ١٩٤٨، جـ٣، ص٣٠٥-٣١٠ ترجمة رقم ٥٣٠؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٢، ص١٧٦-١٧٧؛ السيوطى: حسن المحاضرة، جـ١، ص٣٠٣-٣٠٤.

(٣) المقريزى: خطط، جـ٢، ص٤٤٠-٤٤٢.

(٤) ابن الكندى: فضائل مصر المحروسة، تحقيق د. على محمد عمر، مطبوعات الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧م، ص٣٩-٤٠. حيث الإشارة إلى تعجب الوالى العباسى على مصر موسى بن عيسى (١٧١هـ- رمضان ١٧٢هـ/ ٧٨٧م- فبراير ٧٨٩م) من الصخب الاجتماعى الموجود بالفسطاط حتى إنه عد ١٧ موضعاً للتنزه فى مساحة صغيرة لاتتعدى ميل × ميل. وراجع كذلك: ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٢ ص٦٦-٦٧.

(٥) الكندى: ولاة مصر، ص٢٢٨، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٢، ص٣٠٨- ٣٠٩.

والمقابر، وسجن المؤنثين والنوائح. وأخذ أهل المسجد الجامع بتمام الصفوف،فكان يقدم الناس من مؤخر المسجد بالسوط. وأمر كذلك بألا يشق على ميت ثوب ولا يسود وجه ولا يحلق شعر، ومنع الخلوق الذى يجعل إلى الثياب مع السوار. ومنع النساء من الصياح وعاقب فيه وتشدد[١]. وتابع أزجور التركى متولى شرطة الوالى مزاحم تنفيذ تلك الاجراءات بمنتهى الدقة، واستمر على ذلك بعد توليه أمر مصر (ربيع آخر- رمضان ٢٥٤هـ/ أبريل- سبتمبر ٨٦٨م) حتى ولاية أحمد بن طولون[٢].

والحق إن قضية تفشى الأمراض الاجتماعية بين عامة أهل مصر فى العصر الطولونى قد سارت بين أخْذٍ وردّ. إذ إن هناك من الأدلة ما يؤكد إقبال العديد من عامة المسلمين العرب على تلك الممارسات أسوة بعلية القوم من أمراء البيت الطولونى وكبار رجال الدولة. بينما كان للتيار المحافظ فى ذلك العصر أثره المهم فى الحد من تبذل أفراد المجتمع المصرى.

وأول تلك الأدلة ما سبق الحديث عنه بصدد المرأة الطبالة التى رفع إلى الأمير أحمد ابن طولون أنها تمارس حرفتها بطريقة علنية، إذ "لاسبيل عليها". والتى وجدناها كذلك تمارس البغاء من خلال مرافقتها أحد الجلادين، ثم فارقته إلى معاشرة ثابت بن سليمان رغبة فى المزيد من الثراء والنفوذ باعتبار الأخير أحد كتاب الدولة[٣]. ولاريب أن النمط الخاص بتلك المرأة ينهض دليلاً على أنها كانت تنتمى "لأهل الزعارة" وهم الدهماء من الزعار والعيارين والشطار أو من سموا فيما بعد بالحرافيش. وهى الجماعة التى سبق الحديث عن خروج أفرادها فى طرقات العاصمة مشاركين طوائف الحرس الخاص بالأمير أحمد بن طولون فى التعبير عن حزنهم لوفاته. ولوحظ كذلك أن الأمير جيش بن خمارويه قد اصطفى اثنين منهم، هما خضر وابن البواش[٤].

---

(١) الكندى: المصدر السابق، ص٢٣٦، ابن تغرى بردى: المصدر السابق والجزء، ص٣٣٧-٣٣٨.

(٢) الكندى: المصدر السابق، ص٢٣٧-٢٣٨.

(٣) انظر ما سبق (ص١٢٥ هامش ٢، ٣).

(٤) انظر ما سبق (ص٤ هامش ١٢١) و (ص١٢٦ هامش ٣).

وتقف جنباً إلى جنب مع ما سبق، رواية انفرد بذكرها ابن زولاق على لسان سيبويه المصرى عن وجود "سقيفة قواد" التى سكنها محمد بن هلال عامل الخراج الجديد فى عهد الأمير أحمد بن طولون. وذلك فى معرض الحديث عن عمليات التعذيب التى تعرض لها أحمد بن محمد بن المدبر عامل الخراج السابق وأول خصوم ابن طولون. فقد صدرت التعليمات بتعريض ابن المدبر لأشعة الشمس على مزبلة باب دار ابن هلال التى كانت فى "رحبة حرّى عند سقيفة قواد"[1]. وهى السقيفة التى تدل الشواهد على أنها كانت موجودة بمدينة العسكر دون سواها من عواصم مصر آنذاك كالفسطاط، أو القطائع التى من المؤكد أنها لم تكن أنشئت بعد. يدلنا على ذلك أن الأمير أحمد بن طولون كان من آن لآخر يبدى إعجابه بتفشى روح التدين فى مجتمع الفسطاط، ولهذا كان يوصى صاحب شرطتها- المعروفة بشرطة أسفل أو الشرطة السفلانية- بالرفق والعدل وقضاء حوائجهم. وعلى العكس من ذلك، لم يكن يعجبه صخب الحياة بمدينة العسكر أثناء تفقده أحوالها، لوضوح الانحلال على الكثير من سلوكيات أهلها، فكان ابن طولون يؤكد على من يختاره لشرطتها- وكانت تعرف بشرطة أعلى أو الشرطة الفوقانية لعلو المدينة فوق تلال جبل يشكر بالمقطم- أن يتشدد فى التعامل مع الأهالى هناك "وأرهبهم منك، ولا تكن لهم، واغلظ عليهم"[2]. بمعنى أن مدينة العسكر استمرت منذ إنشائها (١٣٢هـ/٧٤٩م) تحمل طابع الحياة الخاصة بكبار الموظفين العباسيين حيث البيئة العراقية ومذهب الإمام أبى حنيفة النعمان الذى رأيناه يجيز شرب النبيذ بضوابط معينة.

وعلى أية حال، فإن اسم "سقيفة قواد" لم يرد عند غير ابن زولاق، سواء المؤرخين القدامى كابن عبد الحكم والكندى، ولا الذين ذكروا قضية تعذيب ابن المدبر كالبلوى

(١) الحسن بن زولاق: أخبار سيبويه المصرى، نشر وتحقيق محمد إبراهيم سعد وحسين الديب، ط١، القاهرة ١٩٣٣، ص٥٧-٥٨.

(٢) البلوى: سيرة أحمد بن طولون، ص٢٠٥. وعن الشرطة الفوقانية بالعسكر والشرطة السفلى بالفسطاط، انظر: د. سيدة إسماعيل كاشف: مصر فى عصر الولاة، سلسلة تاريخ المصريين، عدد ١٤، مطبوعات الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٨، ص٢٧.

وابن الداية وساويرس، ولا عند مؤرخى خطط مصر كالقاضى القضاعى وابن الطوير، ولا حتى المتأخرين كابن دقماق والمقريزى. مما يعنى نجاح الإجراءات التى اتخذها صاحب شرطة العسكر تنفيذاً للأوامر الصادرة إليه من الأمير أحمد بن طولون فى هذا الشأن.

حادثة أخرى أفرد لها محقق كتاب البلوى عنواناً جانبياً هو "قتيل النبيذ". وخلاصتها أن أحد أصحاب الأخبار أيام الأمير أحمد بن طولون رفع إليه قضية عن اتهام بائع نبيذ بقتل أحد زبائنه أثناء تناولهما النبيذ فى بيت البائع. واستدعى ذلك تدخل ابن طولون وتبين أن الأول قد دعا الثانى باعتباره صديقاً له وآخرين إلى بيته للاحتفال بعثوره على جرة نبيذ معتق، كان البائع قد سد بها جزءاً من جدار متهدم بسطح بيته ونسيها لوقت طويل. وقد استهوى الحضور جودة لون ورائحة النبيذ بحيث أسرع الضيف إلى شرب قدح أثناء انشغال صاحب البيت بإعداد الطعام، وفوجئوا به قد نام، وعندما حاولوا إيقاظه وجدوه ميتاً. وأعيا ابن طولون الأمر بعد استجواب شهود الواقعة لعدم وجود شبهة جنائية، ثم اهتدى لاختبار النبيذ بوضع قطرات منه على كبد خروف طازج "وتركها قليلاً، ثم كشف عنها فأصابها قد تقطعت وتهرأت". وكرر التجربة بعد معالجة النبيذ بكمية من الماء "ثم كشف عنها، فوجدها تبرق مصقولة حسنة". وعندها وضح للجميع أن الرجل راح ضحية تسرعه وشربه النبيذ المركز دون تخفيف بالماء، فلم يعاقب ابن طولون أحداً، وأمر أصحاب الميت بحمله ودفنه، وحذر البائع من تقديم هذا النبيذ على حالته المركزة. بيد أن الأخير أقسم على الإقلاع عن الأمر برمته "لاشربتُ ولا أسقيتُ بعد يومى نبيذاً، أبداً ما عشت". فصرفه ابن طولون بعدما استحسن توبته[1].

ولا ننسى أخيراً أن الازدهار الاقتصادى الذى تميز به العصر الطولونى وما تبعه من رخاء اجتماعى كان سبباً مهماً لتفشى تلك الأمراض الاجتماعية بمظاهرها العديدة. ونختار نموذجاً واضحاً لذلك هو سباق الخيل وعمليات الرهان التى ارتبطت به وجعلت منه حدثاً

(١) البلوى: سيرة أحمد بن طولون، ص١٥٦-١٥٧.

اهتم له القاضى القضاعى وأكد أنه من الأمور الفريدة فى ديار الإسلام[1]. هذا وغيره من عناصر الصخب الاجتماعى التى سبق الحديث عنها، كانت سبباً لجذب بعض الماجنين من الشعراء وغيرهم، مثل أبى العباس عبد الله بن محمد الناشى الأنبارى الأصل البغدادى المقام المعتزلى المعتقد الذى حضر إلى مصر وطاب له المقام بها حتى وفاته فى سنة ٢٩٣هـ (٩٠٦م). وقد اشتهر بخمرياته التى منها تلك الأبيات فى أسماء الخمر[2].

الكرم من كرم الطباع وفضلها ∴ والراح روح أخى الغرام الجاهد
ولتلك سميت الشمول لجمعها ∴ شمل الخليط وضمها للغارد
فتفاءلوا باسم المدام لأن فى ∴ إدمانها إسعاد كل مساعد
وهى العقار لأنهم عقروا بها ∴ ما جمعوا من طارف أو تالد
فاعتض بها عن كل شئ فائت ∴ واغضض بها عين العدو الحاسد

أما عن محاولات أنصار التيار المحافظ للحد من تبذل المجتمع المصرى، فمن أمثلتها على مستوى العامة ما فعله ابن الجراح المصرى فى محاولته المشهورة للتنديد بأخطاء بعض كبار رجال الدولة الطولونية. وإن لوحظ أن أسلوبه الفظ الذى استخدمه فى التعريض بشخص الأمير أحمد بن طولون وأعوانه قد جعل محاولته تبوء بالفشل، بل شهد عليه بعض معاصريه- مجاملة للأمير على ما يبدو- أنه يستطيل على الجميع ويهددهم بالشهادة الزور عليهم. مما أوقعه تحت طائلة العقاب[3].

ولاشك أن محاولات علاج هذه الأمراض من جانب الفقهاء وعلماء السنة يكون لها دائماً بريقاً خاصاً، لما لهم من تأثير على العامة. ويذكر فى هذا المجال الفقيه المصرى

(١) المقريزى: الخطط، جـ١، ص٣١٨.

(٢) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٣، ص١٥٨-١٥٩؛ ابن إياس: بدائع الزهور، جـ١ ق١، ص١٧٤. وعن هذا الشاعر المعروف بالناشى الأكبر، انظر: د. محمد كامل حسين: فى الأدب المصرى الإسلامى من الفتح الإسلامى إلى دخول الفاطميين، مطبعة الاعتماد بالقاهرة، ص٢٤٧-٢٥٠.

(٣) ابن سعيد: المغرب، ص١٠٩-١١٠. (وانظر ما سبق، ص١٢٥ هامش٤، ص١٢٦ هامش ١).

أبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى المزنى الشافعى (ت٢٦٤هـ/٨٧٧م)[١] الذى استنكر بشدة محاولة بعض ضعاف النفوس من المنتفعين بترويج المسكرات والدعاية لمجالس اللهو والغناء استغلال مكانة الإمام محمد بن إدريس الشافعى، وأنهم نسبوا إليه بعد وفاته أنه أجاز سماع الغناء والرقص على الطار والشبابة. فهب الفقيه المزنى مدافعاً عن أستاذه الشافعى فى أبيات من شعره[٢]:

حاشا الإمام الشافعى النبيه ∴ أن يرتقى غير معانى نبيه
أو يترك السنة فى نسكه أو ∴ يبتدع فى الدين ماليس فيه
أو يبتدع طاراً وشبابه لـ ∴ ناسك فى دينه يقتديه
الضرب بالطارات فى ليلة و ∴ الرقص والتصفيق فعل السفيه

كما أن المزنى كان يمثل الشافعية الذين انكروا على الأحناف إجازة شرب القليل الذى لايسكر من النبيذ، وصار يفتى بذلك فى العديد من المواقف. منها ما روى عن اجتماعه، أثناء تشييع جنازةً، ببعض الفقهاء الأحناف كالقاضى بكار بن قتيبة- الآتى

(١) عن المزنى الذى يعد من أبرز تلاميذ الشافعى، انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ١، ص٩٦-٩٧ ترجمة رقم ٩٠؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٣، ص٣٩؛ السيوطى: حسن المحاضرة، جـ١، ص٣٠٧.

(٢) انظر الأبيات الشعرية بتمامها عند: ابن الحاج: المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات (المعروف بكتاب المدخل)، المطبعة المصرية بالأزهر، ط١، القاهرة ١٩٢٩، جـ٣، ص٩٧-٩٨. وقد عقد المؤلف ابن الحاج فصلاً خاصاً (ص٩٣-١٢٨) فى آداب السماع وكيفيته، وذكر أحاديث نبوية شريفة تؤكد تحريم اتخاذ القينات والمعازف وأن ذلك من علامات يوم القيامة، ويؤكد تحريم ما يكسبه المغنى والمغنية. وحذر كذلك من توابع المجون المترتب على شيوع مجالس اللهو كممارسة الزنا واللواط وغير ذلك.ويذكر عن ابن الحاج أنه كان فقيهاً مالكياً من أهل فاس بالمغرب الأقصى، وقد استوطن مصر حتى وفاته سنة ٧٣٧هـ (١٣٣٦م) وأنكر تفشى أنواعاً عديدة من الأمراض الاجتماعية، بحيث إن كتابه المدخل (المطبوع فى ٤ أجزاء) يعد مرآة صادقة تعكس أمراض المجتمع المصرى فى محاولة لعلاجها آنذاك (ق٨هـ/١٤م). عن ذلك انظر: د. أحمد عبد اللطيف حنفى: الدور السياسى والحضارى للمغاربة والأندلسيين فى مصر فى عصر الدولتين الأيوبية والمملوكية، رسالة دكتوراه لم تنشر، كلية الآداب، جامعةطنطا، سنة ١٩٩٢، ص٣١٤.

ذكره- ومعاونة، أبى جعفر التل، فدار بين الطرفين حوار طويل أقرب للمناظرة الفقهية، انتهى بتسليم القاضى بكار للمزنى بقوة الحجة، وقال عن ذلك: "سبحان الله، أن يكون كلام أدق من الشعر، فهو هذا"(١).

بيد أن انضمام القاضى بكار بن قتيبة العراقى الأصل من البصرة، الحنفى المذهب (ت ٢٧٠هـ/٨٨٣م)(٢). إلى قائمة منكرى شرب النبيذ قليله وكثيره، كان له أثره الكبير فى هذا المجال. وذلك منذ توليه قضاء مصر (سنة ٢٤٦هـ/٨٦٠م) وحتى عزله أحمد بن طولون فى سنة ٢٧٠هـ (٨٨٣م). وقد قيل عنه "كان بكار يخالف أصحابه فى تحليل قليل النبيذ، ويذهب إلى تحريمه (أى القليل). وعاتب أبا جعفر التل صاحبه على شربه"(٣).

ونحسب أن الأمير أحمد بن طولون نفسه من أنصار التيار المحافظ، وذلك لجهوده فى منع تبذل أفراد المجتمع. فقد كانت قراراته المتشددة لصاحب شرطة العسكر صادرة عن تجاربه الشخصية فى تفقد الأمن بنفسه والتصدى للمخالفين. وقال هو عن نفسه معبراً عن ضيقة بسلوكيات أهل العسكر: "فإنى أسير فى محالهم، فما أمر بموضع واسمع فيه الإ غناءً أو سكران معربداً، قد أخرجته عربدته إلى الوثوب والكفر"(٤). وقد حدث للأمير ابن طولون أثناء تفقده الأمن بأطراف المعافر من ضواحى الفسطاط أن وجد سكيراً فى الطرقات وكان الوقت متأخراً. ويبدو أن السكير أفاق من هول استجواب الأمير له، فأجاب بما يدل على احتفاظه بوعيه ورباطه جأشه "فاستحيا منه أحمد بن طولون لحسن

(١) ابن حجر: رفع الإصر عن قضاة مصر (بآخر كتاب الولاة والقضاة للكندى تحقيق رفن جست) ص٥١١.

(٢) تولى بكار بن قتيبة قضاء مصر سنة ٢٤٦هـ (٨٦٠م). وله واقعة مشهورة مع ابن طولون، فهو الذى رفض إطاعة أوامره بلعن الموفق طلحة- أخى الخليفة المعتمد- على منابر المساجد بمصر. فعزله ابن طولون عن القضاء وسجنه. راجع: ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ١، ص٢٥٢-٢٥٣ ترجمة رقم ١١٣؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٣، ص٤٧؛ السيوطى: حسن المحاضرة، جـ١، ص٤٦٣، جـ٢، ص١٤٤-١٤٥.

(٣) ابن حجر: رفع الإصر، ص٥١١.

(٤) البلوى: سيرة أحمد بن طولون، ص٢٠١-٢٠٣و ص٢٠٥.

عبارته وبيان قوله، وتوقف عما كان عزم عليه من التأديب لـه فى الخروج فى مثل هذا الوقت"[1].

والخلاصة:

إن الأمراض الاجتماعية ودرجة تفشيها داخل الأسرة الطولونية وأعوانهم وبعض قطاعات المجتمع المصرى كان لها علاقة وثيقة بتدهور الدولة الطولونية وسقوطها. فها هو الأمير أحمد بن طولون، مؤسس الدولة- والذى بدأت أعراض الداء تظهر فى عهده على استحياء- بدا قابضاً على زمام الأمور بيد من حديد، بل كان نداً حقيقياً لكل المشكلات والصعوبات الداخلية والخارجية.

أما ابنه خمارويه، الذى رأيناه وسطاً بين جد أبيه وهزل الباقين من أفراد الأسرة فى مسائل اللهو، فقد تأرجح النفوذ الطولونى فى عهده بعض الشئ. وإن أدى اعتماده على قوة الدفع التى بذلها أبوه أحمد بن طولون إلى إقناع الإدارة العباسية فى العراق بترك الملف المصرى بأيدى نوابهم الطولونيين إلى حين، بعد أن بدا أنهم قادرون على النهوض بحكم البلاد.

بيد أن الاقتران الذى حدث فى عهد خلفاء خمارويه بين تفشى تلك الأمراض الاجتماعية بدرجات خطيرة وبين التدهور السريع فى أمور الجيش والاقتصاد أوعز للعباسيين بضرورة تدارك الأمر، لاسيما بعد أن ثبت فشل الإدارة الطولونية الماجنة آنذاك فى مواجهة الأخطار الخارجية التى هددت مصر من الشرق والغرب. وكانت من ثم تلك الجيوش العباسية التى جاءت إلى مصر فى البر والبحر لتصحح الأوضاع وتلغى تلك التجربة اللامركزية من تجارب الحكم العباسى فى ولاية مهمة من ولاياتها.

والتساؤل الذى يطرح نفسه، هل كان للإدارة العباسية فى مصر- بعد سقوط الدولة الطولونية- أدوار معلومة فى مواجهة هذه الأمراض الاجتماعية التى ثبت أنها كانت- من وجهة نظرنا- السبب الحقيقى فى سقوط حكم الطولونيين. هذا مايحتاج لبحث جديد.

---

(١) المرجع السابق والصفحات.

قائمة المصادر والمراجع (*).

أولاً: الوثائق العربية:

- أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية. قام على نشرهاودراستها باللغة الانجليزية أدولف جروهمان. ترجمها إلى العربية د. حسن إبراهيم حسن والأستاذ عبد الحميد حسن. مطبوعات دار الكتب المصرية،ط٢، سنة ١٩٩٤م.

ثانياً: المصادر العربية:

- ابن الأثير (٦٣٠هـ) عز الدين أبو الحسن على بن أبى الكرم الشيبانى الجزرى:

١- الكامل فى التاريخ، جـ٧، ٩ بخاصة. طبعة دار صادر بيروت، ١٩٧٩م.

- ابن إياس (٩٣٠هـ) محمد بن أحمد الحنفى:

٢- بدائع الزهور فى وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، ٥ أجزاء، جـ١ ق١ بخاصة. مطبوعات مركز تحقيق التراث بالهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٢م-١٩٨٤م.

- البلوى (الثلث الثانى من القرن الرابع الهجرى) أبو محمد عبد الله بن محمد المدينى.

٣- سيرة أحمد بن طولون، حققها وعلق عليها محمد كرد على، دمشق ١٩٣٩م.

- ابن تغرى بردى(٨٧٤هـ) جمال الدين أبوالمحاسن يوسف بن تغرى بردى الأتابكى

٤- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة جـ٢، ٣ بخاصة. طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٩-١٩٣٦م.

- التنسى (٨٩٩هـ) أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الجليل التلمسانى:

٥- تاريخ دولة الأدارسة، من خلال كتاب نظم الدر والعقيان فى بيان شرف بنى زيان (الفصل الثانى من الباب السادس، فى ذكر الأدارسة وإخوتهم السليمانيين)

(*) لم يرد بهذه القائمة غير المصادر والمراجع المثبتة فقط فى هوامش البحث.

تحقيق عبدالحميد حاجيات، قسمان، مجلة التاريخ رقم ٩، ١٠، نشر المركز الوطنى للدراسات التاريخية، الجزائر، ١٩٨٠-١٩٨١م.

- ابن الحاج (٧٣٧هـ) أبو عبد الله محمد بن محمد العبدرى الفاسى المالكى:

٦- المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات والتنبيه على بعض البدع والعوائد التى انتحلت وبيان شناعتها وقبحها، المعروف بكتاب المدخل، ٤، أجزاء. مطبوعات المطبعة المصرية بالأزهر، ط١، القاهرة ١٩٢٩م

- ابن حجر (٨٥٢هـ) شهاب الدين أحمد بن على العسقلانى:

٧- رفع الإصر عن قضاة مصر. ملحق على كتاب الولاة والقضاة للكندى. تحقيق رفن جست. مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت ١٩٠٨م.

- ابن خلدون (٨٠٨هـ) ولى الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد:

٨- المقدمة. أو الجزء الأول من كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، ٣ أجزاء. تحقيق د. على عبد الواحد وافى، مطبوعات دار نهضة مصر، القاهرة، ط٣، سنة ١٩٨١م.

- ابن خلكان (٦٨١هـ) شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن أبى بكر:

٩- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ٦ أجزاء. تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد، ط١، القاهرة ١٩٤٨م.

- ابن الداية (بعد ٣٣٠هـ) أبو جعفر أحمد بن يوسف بن إبراهيم الكاتب:

١٠-كتاب المكافأة. صححه وضبطه وشرحه أحمد أمين وعلى الجارم. مطبوعات وزارة المعارف العمومية بمصر، ط١ سنة ١٩٤١م.

- ابن زولاق (٣٨٧هـ) أبو محمد الحسن بن إبراهيم:

١١-أخبار سيبويه المصرى: نشره محمد إبراهيم سعد وحسين الديب، ط١، القاهرة ١٩٣٣م.

- ساويرس بن المقفع (أواخر القرن الرابع الهجرى) أسقف الأشمونين:

١٢-تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية (طبعة معهد الدراسات القبطية بمصر سنة ١٩٨٤م) إعداد وتعليق الراهب صموئيل السريانى. (طبعة جمعية الاثار القبطية بالقاهرة ١٩٤٣م) جـ١، ٢ من المجلد الثانى بخاصة. قام على نشره يسى عبد المسيح وأزولد برمستر.

- السرخسى (٤٨٢هـ) أبو بكر شمس الأئمة محمد بن أحمد بن أبى سهل:

١٣-المبسوط فى الفقه الحنفى. (٣٠ جزءاً). منشورات دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان (د.ت) جـ٢٤ بخاصة.

- ابن سعيد (٦٨٥هـ) أبو الحسن على بن موسى بن سعيد الأندلسى وآخرون:

١٤-المغرب فى حلى المغرب، جـ١ من القسم الخاص بمصر. تحقيق د. زكى محمد حسن وآخرين. مطبعة جامعة فؤاد الأول (القاهرة) ١٩٥٣م.

- السيوطى (٩١١هـ) جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد:

١٥-حسن المحاضرة فى تاريخ مُصر والقاهرة. جزآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. مكتبة عيسى البابى الحلبى بالقاهرة، ط١، سنة ١٩٧٦م.

- الشابستى (٣٨٨هـ) أبو الحسن على بن محمد:

١٦-الديارات. عنى بتحقيقه ونشره كوركيس عواد. مطبوعات المجمع العلمى العراقى، بغداد ١٩٥١م.

- الطبرى (٣١٠هـ) أبو جعفر محمد بن جرير:

١٧-تاريخ الرسل والملوك. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، جـ٩ بخاصة. دار المعارف، القاهرة، ط٤، سنة ١٩٧٩م.

- ابن عذارى (كان حياً سنة ٧١٢هـ) أبو العباس أحمد بن محمد المراكشى:

١٨-البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب. جـ١ بخاصة نشر ليفى بروفنسال وجورج كولان. دار الثقافة ببيروت، ط٢ سنة ١٩٨٠م.

- ابن عساكر (٥٧١هـ) على بن الحسن بن هبة ا لله، الحافظ:

١٩-تاريخ دمشق. هذبه ورتبه عبد القادر بن بدران الدمشقى (٧ أجزاء) مطبوعات المكتبة العربية بدمشق، ط١، سنة ١٣٢٩هـ-١٣٤٩هـ.

- الكندى (حوالى ٣٥٠هـ) أبو عمر محمد بن يوسف:

٢٠-ولاة مصر وقضاتها. تحقيق رفن جست وبآخره ذيل كتبه أحمد بن عبد الرحمن بن برد وملحق لاستيفاء أخبار القضاة جمعت من كتاب رفع الإصر عن قضاة مصر لابن حجر العسقلانى. مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٨م.

٢١-ولاة مصر، تحقيق د. حسين نصار. دار صادر بيروت، ١٩٥٩م.

- ابن الكندى (النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى) عمر بن محمد بن يوسف:

٢٢-فضائل مصر المحروسة. تحقيق د. على محمد عمر. مطبوعات الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٧م.

- ماركو بولو (١٣٢٤م) الرحالة الايطالى:

٢٣-رحلات ماركو بولو. ترجمها إلى الإنجليزية وليم مارسدن، وترجمها (فى ثلاثة أجزاء) إلى العربية عبد العزيز جاويد، سلسلة اللف كتاب الثانى (رقم ٢٠١) مطبوعات الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط٢، سنة ١٩٩٥م..

- المسعودى (٣٤٦هـ) أبو الحسن على بن الحسين بن على:

٢٤-مروج الذهب ومعادن الجوهر. تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، ط٤، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة ١٩٦٤م.

- المقريزى (٨٤٥هـ) تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر:

٢٥-الخطط أو المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار. جزآن. طبعة بولاق ١٢٧٠هـ.

ثالثاً: المراجع الحديثة:

- آدم متز (دكتور)

١- الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى. ترجمة د. محمد عبد الهادى أبو ريدة. جزآن. ط٣، القاهرة ١٩٥٧م.

- أحمد عبد اللطيف حنفى (دكتور)

٢- الدور السياسى والحضارى للجاليات المغربية فى مصر الإسلامية من عصر الولاة حتى نهاية العصر الفاطمى، رسالةماجستير لم تنشر،كلية الآداب،جامعة طنطا، ١٩٨٧م.

٣- الدور السياسى والحضارى للمغاربة والأندلسيين فىمصر فى عصر الدولتين الأيوبية والمملوكية، رسالة دكتوراه لم تنشر، كلية الآداب جامعة طنطا، سنة ١٩٩٢م.

- أحمد فتحى بهنسى (دكتور)

٤- الخمر والمخدرات فى الإسلام، مؤسسة الخليج العربى، ط١، القاهرة ١٩٨٩م.

- أحمد مختار العبادى (دكتور):

٥- فى التاريخ العباسى والفاطمى. مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، ١٩٨٢

- السيد طه السيد (دكتور):

٦- الحرف والصناعات فى مصر الإسلامية. سلسلة الألف كتاب الثانى عدد ٩٥. القاهرة ١٩٩١م.

- حسن أحمد محمود (دكتور)

٧- حضارة مصر فى العصر الطولونى. مطبوعات دار الفكر العربى، القاهرة ١٩٧٧م.

– سعد زغلول عبد الحميد (دكتور)

٨– تاريخ المغرب العربى (٤ أجزاء) جـ٢ بخاصة. منشأة المعارف، الاسكندرية سنة ١٩٧٩م.

– سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور)

٩– مصر فى العصور الوسطى. مطبوعات دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٩٢م.

– سعيد مغاورى محمد (دكتور):

١٠–الألقاب والحرف والوظائف فى ضوء البرديات العربية. رسالة دكتوراه لم تنشر. كلية الآثار جامعة القاهرة، سنة ١٩٩٤م.

– سيدة إسماعيل كاشف (دكتورة):

١١–أحمد بن طولون. سلسلة أعلام العرب، عدد ٤٨، القاهرة ١٩٦٥م.

١٢–مصر فى فجر الاسلام. سلسلة تاريخ المصريين عدد ٨٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤م.

١٣–مصر فى عصر الولاة، سلسلة تاريخ المصريين عدد ١٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٨م.

– عاصم محمد رزق (دكتور):

١٤–مراكز الصناعة فى مصر الإسلامية. سلسلة الألف كتاب الثانى، عدد ٦٨ القاهرة ١٩٨٩م.

– عبادة عبد الرحمن كحيلة (دكتور)

١٥–الزط والأصول الأولى للغجر. المطبعة الإسلامية الحديثة، القاهرة ١٩٩٤م.

– عبد الله بن ناصر السدحان (الأستاذ):

١٦–الترويح وعوامل الانحراف (رؤية شرعية) منشورات كتاب الأمة. سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر. العدد ٧٤، ذو القعدة ١٤٢٠هـ، السنة التاسعة عشر..

- قاسم عبده قاسم (دكتور):

١٧-أهل الذمة فى مصر فى العصور الوسطى. مطبوعات دار المعارف بمصر، ط٢ سنة ١٩٧٩م.

- مجمع اللغة العربية

١٨-المعجم الوسيط. القاهرة، ط٢ سنة ١٩٧٢م.

- محمد أحمد عبد المولى (دكتور):

١٩-العيارون والشطار البغاددة فى التاريخ العباسى. مؤسسة شباب الجامعة بالاسكندرية، ١٩٥٧م.

- محمد أمين صالح (دكتور):

٢٠-دراسات اقتصادية فى تاريخ مصر الإسلامية (عصر الولاة) ط١ سنة ١٩٧٥م.

- محمد عثمان الخشت (الستاذ):

٢١-حركة الحشاشين، تاريخ وعقائد أخطر فرقة سرية فى العالم الإسلامى. مطبوعات مكتبة ابن سينا، القاهرة ١٩٨٨م.

- محمد كامل حسين (دكتور):

٢٢-فى الأدب المصرى الإسلامى من الفتح الإسلامى إلى دخول الفاطميين. مطبعة الاعتماد، القاهرة (د.ت).

تم بحمد الله تعالى